مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

ابراهيم عيسى

أم بلا مولود

رواية

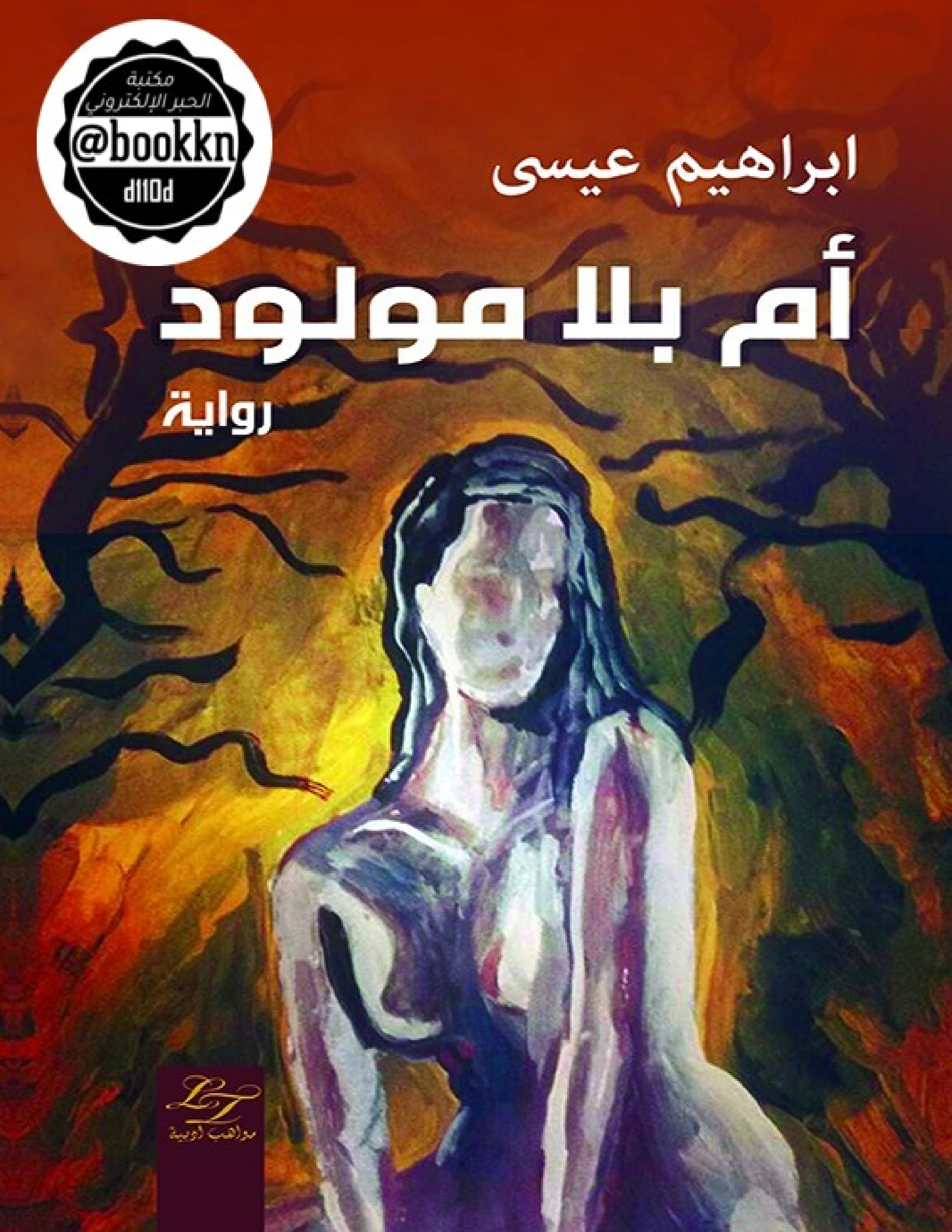

مواهب أدبية

ابراهيم عيسى

أُم بلا مولود

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

يصدر هذا الكتاب بالتعاون مع

Literary Talents - "مواهب أدبية"

literarytalentsagency@gmail.com

مقدّمة

أنا مؤمنة بأن لكل شخصٍ قصة، لكل فردٍ من هذا المجتمع ظروفاً، ولكل إنسانٍ مساراً يحدد مصيره. وكما أن هنالك أناساً لديهم ما يكفي من السهولة ليتكلموا عن أنفسهم، هنالك أيضاً أناسٌ عزة أنفسهم لا تسمح لهم بأن يتكلموا عن تفاصيل حياتهم الخاصة.

في هذه الرواية لست بزيارة طبيب نفسي، أو في جلسة علاجية عنده. كما وإنني لست في برنامج تلفزيوني يستقبل الناس لحلّ مشاكلهم. لن أبكي على ولدٍ خسرته، ولا أريد الشفاء من جروحي لأنها هي التي تحرّكني. لكل من ينتقد الناس من دون معرفة حياتهم الخاصة أقول: ما أبعدهم عن الحقيقة وما أقربهم من التفاهة. أنا قادرة في كل لحظة على أن أحلم، وعلى تحقيق أحلامي. ولا مشكلة ألّا يتحقق الحلم اليوم، فالانسان قادر على أن يحلم في كل يوم، ومن هنا تكون البداية.

بداخل كل منا خوف، لا يهمّ ممّا؛ من شيء واحد، أو من أشياء كثيرة. والأهم أن نعرف متى، وكيف نسيطر على مخاوفنا قبل أن تتحول إلى عقدة كبيرة في حياتنا.

أنا إحدى أولئك الذين اكتشفوا هذا متأخرين، وذلك بعدما أصبح لدي فوبيا من أشياء كثيرة لخوفي منها؛ خوف من الحياة، من الناس، من المجتمع، من الوحدة، وحتى من العتمة.

لكن إن أردت أن تحقق حلمك، وإن أردت بلوغ القمة، عليك أن تواجه هذا الخوف. ولا شيء مستحيل، والدليل رقم واحد: جميعنا يعلم أن الرقم واحد هو بداية الأرقام بعد الصفر.

شجرة وحيدة قد تكون غابة. ابتسامة يتيمة هي عربون صداقة. نجمة قد تهدي سفناً كثيرة تائهة في البحر. حتى الضحكة، يمكن لها أن تقهر أحزاناً كثيرة. لمسة، مجرّد لمسة، تعطي الكثير من الاهتمام. صوتٌ وحيد قد ينطق بالحكمة. وباختصار، دقيقة قد تغير مصيرك.حاولوا أن تستعيدوا السعادة التي في داخلكم، وفكّروا بجمال الأشياء من حولكم، وكونوا سعداء.

"هي"

-1-

وقفت أمام مرآتها بكامل أنوثتها الربّانية، متعرّيةً من كل ما عليها؛ من ثيابها، من صخب المجتمع الذي ظلمها، ومن كل قيد أسرها في ما مضى. كوَّرت يديها على بطنها، كما تلتقط يدا الله هذه الأرض في مجرتها الكونية، محاولةً أن تلتقط الحياة النامية داخلها، أن تتحسّسها، أن تداعبها، أن تكلّمها لتخبرها كم تحبّها؛ هي الحياة القادمة التي ستعطي معنًى لحياتها.

رسمت على ثغرها الإغريقي ابتسامةً إلهية:

- يا ترى، صبي أم بنت؟ لا فرق، حياتي أنت...

لم تضع، لا فتحة اعرابية على "أنت" ولا كسرة؛ فهي لا تعرف جنس مولودها المنتظر بعد. ستحبّه كيفما سيكون، صبياً أم بنتاً. تنتظره ليعطيها الحياة التي فقدت، ليعطيها الأمل، الأمل باستعادة بريق عينيها الزرقاوين، ليعيد إلى محيّاها بياض الثلج الذي فقدته في عواصف شتائها، ليُرجِع لشعرها سواده الحالك حالما يلتقطه مداعباً خُصلاته. تأمل أن يتغير كل شيء بمجيء صغيرها، وستعطيه الحب الذي بدأ يتلاشى في فراشها الزوجي؛ حبٌّ سُحِق بصفعة - كانت الأولى - على خدّ الورد.

وقفت أمام المرآة وقفة جانبية. حدَّقت إلى جسدها العاري، متأمِّلةً ثناياه، ممعِنةً النظر بمساماته، بتضاريسه التي كوَّنت تلك المنحوتة العاجية، بتفاصيله التي جعلتها أيقونة إغريقية. التقطت رداءها ولبسته: فيه خبّأت منحوتتها من وحشٍ يرقد في الغرفة المجاورة، متربِّصاً بذاك الجسد الجميل لينهش منه قدر ما يستطيع، ليلةً بعد ليلة حينما يكتمل القمر ويتحول إلى وحش بشري.

عادت إلى سريرها الإجباري؛ كسجينٍ عائدٍ إلى زنزانته مرغماً وهو، وحيداً، يعلم براءته.
نظرت إلى زوجها وتمتمت في سرّها: "كيف تزرع في داخلي حياةً، وأنت لا ذرّة حياة فيك؟!"

-2-

"وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ".

أنهت صلاتها، سورة الضحى التي تحب: هي "ضحى"؛ سُمِّيت تيمّناً بهذه السورة.

خرجت إلى شرفتها، مشرقةً كالضحى. انتظرت ذاك الجار، علّه يمر ويلقي التحية. لفته جمالها الأخّاذ. اعتادت رؤيته كلَّ يوم: يمرّ أمام منزلها، يرمقها بنظرة إعجاب، فتبادله النظرة نفسها.

يوماً بعد يوم، انتقل الأمر من النظرات إلى الكلام. أحبّت ضحى الجار الذي كان بنظراته يرسم الطريق أمام منزلها. رأت في مشاويره، وفي لَفتاته، فارس أحلامها الذي ستمتطي معه صهوة الحب الأول، وهي الفتاة البريئة في مقتبل العمر؛ تلك الزهرة التي بدأت براعمها تتفتّح، ذاك الضحى أول النهار، تلك النغمة الأولى لسمفونية الحياة الأبدية.

استأذنت والدتها بالخروج، فهي تعيش معها وإخوتها. أمّا والدها فقد اضطره الحال ليغترب في بلاد الله الواسعة لإعالة الأسرة وليؤمن لها الراحة والأمان المادي.

- أرجوك، لا تتأخري يا ابنتي خارج المنزل.

- لا، أمي. سأذهب مع صديقاتي للاستجمام قليلاً، ولن أطيل البقاء خارجاً.

لا، هي ليست مع صديقاتها. ذهبت إليه، وهو ينتظرها خلف سور حديقة البلدة؛ مرحلة الكلام بدأت منذ قرابة الشهر، بعد أن ملّت العيون النظرات و بعد أن ملّ القلب من التنهّد.

- متى أزور والدتك لأطلب يدك؟

- أنت تستعجل الأمور قليلاً، أليس كذلك؟

- لا، فأنت تعلمين أننا نعيش في بلدة محافظة ولا أريد كلام سوء قد يخرج على ألسنة الناس.

- حسناً، سأفاتح أمي بالموضوع و أستأذنها لتزورنا.

سبقتها فرحتها إلى البيت ذاك اليوم، دخلت ضحكتها قبلها من الباب. من انتظرته طويلاً، واستلطفت نظراته، سيطلب يدها ليتوجها عروساً في هيكل الحب.

كل شيء سار كما خُطِّط له: حفل خطوبة، فستان كفساتين أميرات ديزني، وخاتم خطوبة يلمع بيدها كسندريلا. نعم، هي سندريلا ليلتها تلك، لا بل هي الأميرة النائمة التي أتى حبيبها و أيقظها من سباتها بقبلة. لا شيء يوقف سعادتها وأحلامها التي لامست النجوم؛ الليلة تنام في حضن القمر ملتحفةً بنوره الأزرق، وسينزل ملاك صغير ليرسم بأصابعه ضحكةً على ثغرها ويتمنى لها أحلاماً سعيدة.

-3-

- غدًا اليوم الأخير من امتحانات شهادة البكالوريا.

أومأ برأسه ولم يُجِب. نظر إليها طويلاً، ثم شاح بنظره بعيداً؛ إلى مكانٍ هي نفسها لا تعرف أين. غاب بصمته قليلاً، ثم عاد.

- ما بك، لم لا تجيب؟!

- لن تذهبي غداً، كفى...

- ماذا؟! أقول لك غدًا هو اليوم الأخير من الامتحانات، فكيف لا أذهب؟!

- هكذا، لا تذهبين. فلينتهِ الكلام هنا.

- لِمَ، ما هو السبب؟! ألم نتّفق أن أكمل دراستي الجامعية؟

- نعم، اتفقنا. والآن تغيّر الاتفاق.

- كيف تغيّر، ولِمَ؟! هل تريدني أن أوقف تعليمي؟! لِمَ، ما السبب؟!

- قلت لك لا تجادلي، توقّفي عن الكلام...

لم يقل الجملة الأخيرة بنبرة هادئة. الصراخ سيّد الكلام، وانتهى الحوار بصعقة... صعقة، تكفَّلت بإسكاتها طوال أيام حياتها.

- توقَّفْ أرجوك، أنت تؤذيني! توقَّف، بالله عليك! ارحمني، أقبِّل يدك، أستحلفك بروح أمك أن تتوقف، أنت تؤلمني!

- اخرسي. قلت لك اصمتي، لِمَ تتابعين الكلام؟

فهمت أن عليها السكوت، وكلمات الاستعطاف لن تغيّر شيئاً. التوسل والرجاء لن يخدماها بشيء، بل سيؤدّيان إلى لكماتٍ وكدماتٍ إضافية. أذعنت لطلبه، أمّا هو فتابع مهمّته في إسكاتها، في خنق عبير الورد، في سرقة الطفولة من عينيها، في قتل الجمال من خدّيها،... ماذا يفعل؟! لِمَ يضربها؟! ما هو السبب؟! لِمَ تلك اللكمات الدامية على وجهها، على رأسها وعلى جسمها؟! ألم تؤثِّر دموعها فيه؟! كيف لجمالها ألّا يوقفه، كيف لرقّتها ألّا تردعه، كيف لعينيها ألّا تسحراه وتثنياه عن فعلته؟! لِمَ ينهال عليها بهذا الضرب المُبرح، هل يستلذ برؤية الدم يقطر من شفتيها؟ عدَّت لكماته لكمةً لكمة، كالصخر الذي يعدُّ حبيبات البرَد القاسي التي تصفعه في ليلة شتاءٍ غاضب. عدَّت الضربات كالمحكوم تحت سوط جلّاده. لم تستوعب ما يحصل معها! إذا كانت مجرمة، فما هو جرمها؟! أنزل بها العقاب من دون تهمة أو حكمٍ مسبق. أنهى تنفيذ "الحكم" ورحل؛ ترك ضحيته في ساحة الجريمة مجرّدة من كل شيء ورحل...

في هذه اللحظة لا يهمّها العقاب، ولا تهمّها الضربات واللكمات التي تذوقتها من كل طعمٍ ولون. كل ما تفكر فيه الآن هو كيف تخفي ازرقاقَ وجهها، آثارَ جريمته عن جسدها، يديها، رِجليها، شفتيها، هاتين الشفتين اللتين يموت النحل ويحيا ليتذوّق رحيقهما.

نعم، قد تخفي مساحيق التجميل فِعلته. لكن أنّى لها أن تخفي وجع روحها؟! لن يسألها أحد عن الأمر، لن يلاحظ الناس الكدمات التي خلّفها على كافة أنحاء جسدها بعد أن ضربها دونما سبب؛ ستخفي ما حدث، ستتظاهر باللاشيء. "لا، لم يفعلها! كان هذا حلماً، كابوساً، وسأستيقظ منه غداً وكأنَّ شيئاً لم يحصل..." راحت تكلِّم نفسها هكذا، بصمت، ملتقطةً الفوضى التي خلَّفها وراءه في المنزل، ملتقطةً جسدها عن الأرض، وأوجاعها عنه، ملتقطةً أنفاسها، ماسحةً دموع الرياحين عن عينيها.

هرعت مسرعةً إلى الحمام: "مساحيق التجميل، نعم مساحيق التجميل، أين هي؟! يا إلهي! ستأتي أمي، ستراني! يا رب، ماذا أفعل؟!"

أسرعت ووضعت كحلاً على عينيها، وبودرة على وجهها ويديها. هي لا تحتاج إلى أن تتبرّج بالمساحيق: هي الفاتنة الجميلة، هي الأميرة النائمة، هي سندريلا ديزني! و هل تحتاج سندريلا إلى مساحيق تجميل؟! "نعم، هذه الليلة فقط لئلا تراني أمي وتراني أخواتي على هذه الحالة المزرية".

بريئة هي ضحى، دائماً ما يكون الضحى بريئاً وهو دقائق النهار الأولى. فكيف يكون النهار قاسياً من مطلعه؟! تحتاج الشمس إلى ساعاتٍ وساعات لتحوّل النهار إلى جهنّم حارقة. وتحتاج الغيوم إلى وقتٍ طويل كي ترشق النهار بالمطر والعواصف. لكنَّه لم يحتج إلى أكثر من عشر دقائق كي يحوِّل الضحى إلى ليلٍ حالك.

- ماذا فعلت يا الله؟! لِمَ ثار غضبه عليَّ هكذا؟! كيف تحوَّل فجأةً إلى حيوانٍ كاسر؟! هل هو الشخص نفسه الذي أحببت؟! هل هو نفسه من كان يرمقني بنظرات الحب أمام شرفتي؟! لقد تغيّرت نظراته، لم أعهد عيونه تلك من قبل! عيونٌ غاضبة، كاسرة، يتطاير منها الشرّ شذراً مذراً! لا، إنه شخص آخر...

ماذا فعلت؟! لقد دمّرت حياتي، لقد دمّرني. لا...لا... كل شيء سيتغيّر غداً. هو منزعج وغاضب. من المؤكد أن عمله هو السبب. نعم، عمله يضغط عليه. ربّما. لا أدري، لا أدري. ستعود الأمور كما كانت من قبل، وسيأتي في الغد طالباً السماح، وسأسامحه...

ببراءتها، بسذاجتها، سألت وأجابت نفسها! بشخصيتها الخجولة، الضعيفة، سامحته قبل أن يطلب السماح! كيف لا، وقد وعدها بحياة ملؤها الحب والفرح. أما قال لها: كثر الكلام على ألسنة الناس، فلتستأذني أمك لأطلب يدك.

سامحته بسرعة لأنها وردة ربيعية لا تعرف الحقد. تربّت في بيتها على الإيمان والمحبة، ولم تقسُ الحياة عليها من قبل. لم تختبر محنها، فأخذت منها الإيمان، الغفران، والمسامحة. لكنَّ هذا اليوم أعطاها الدرس الأول في القساوة، في الحقد، في الألم، في المعاناة والتصبُّر. لم يحتجْ إلى أكثر من دقائق عشر كي يعلِّمها كيف تحتمل الألم من دون أن تشتكي أو تتكلم... أعطتها الحياة درسها الأول على يد "حبيبها"، فهل عليها أن تذهب غداً لتكمل امتحانها؟! توّاً اكتشفت أن هناك دروساً

كثيرة عليها أن تتعلمها، وأن المنهج الدراسي لا ينتهي عند انتهاء الحصة وسماع جرس المدرسة. ها قد تعلّمت الدرس الأول اليوم: أن تتلقّى الصفعة وتبقى صامتة، أن تتلقّى الألم على يد "الحبيب".

اكتشفت اليوم أن الحب مؤلم، وقد يصفعها، لا على وجهها فقط، بل على روحها. وما أصعب أن يتلقى الإنسان ضربة في خبايا داخله! قد يختفي ألم الجسد، ولكن أنّى لألم الروح أن يزول؟! الجسد ينسى، أمّا النفس فذاكرتها قوية: تتراكم الأحداث والآلام في خباياها ولا تزول، وكلُّ ألمٍ يحكي رواية، وكلُّ روايةٍ تحكي أحداثاً، والأحداث تتجمّع وتتحوّل إلى وحولٍ تُغرق الروح والنفس. يستطيع الجسد أن يخرج من وحل الآلام، يستطيع أن يمسح عن جلده آثار الضربات والطعنات والصفعات. لكنَّ أمطار العين كلها لا تقوى على غسل الوحول المتراكمة فوق مسامات الروح.

لملمت ضحى الصفعات والضربات ومشت إلى امتحانها تكتب ما تعلّمته في الكتب المدرسية، علّها تنسى بين السطور الدرس الذي تعلّمته من الحياة البارحة. ثم عادت إلى البيت كأن شيئاً لم يكن. وجدته في انتظارها. دخلت وألقت عليه التحية، قبّلت أمها وجلست إلى جانبه. لم يلاحظ أحدٌ ألمها ووجعها؛ جهدت كي لا تفضحها دموعها ومشاعرها.

- أرجوكِ سامحيني. ما فعلته البارحة كان خطأً لا يُغتفر.

- لا، ليس خطأً بل خطيئة! هل تذكر كيف ضربتني، هل تذكر صفعاتك؟! ألم ترَ كيف انهلت عليَّ ضرباً بتلك الطريقة الوحشية؟!

- أقسم لكِ أنني نادمٌ في الصميم، ولتُقطَعْ يدي إن مسّتك ثانيةً. أعدك، بدموعي، لن أعيد الكرّة قطّ.

- آلمتني كثيراً البارحة لدرجة أنني أفكّر بالانفصال؛ لا أرغب بأن نُكمل علاقتنا...

- لا أرجوكِ، لا تقولي هذا. تعلمين جيداً، وفاة أمي أثّرت علي. أرجوكِ، ليس لي أحد سواك: أنت أمي وحبيبتي ورفيقتي وأختي، أنت كل شيء بالنسبة إليّ.

- لكنني بتُّ أخاف منك كثيراً؛ أخاف أن أكمل حياتي معك، ثم تعيد ما فعلته البارحة غداً أو بعد غد! أخاف أن أقترب منك فتبعدني صفعة جديدة عنك! أنا أخافك الآن، فهل تعلم معنى أن نخاف

من نحب؟!

- لا تخافيني بالله عليك، قلت لك إن موت أمي أثّر فيّ كثيراً. لا أعرف ماذا حصل لي البارحة؛ لم أكن أنا. لا، لست أنا من لمسك البارحة: وحشٌ في داخلي استيقظ ولبسني! لم أكن أنا، أقسم لك. ارأفي بي، وبدموعي، أرجوك.

- وأنت؟! تضرّعتُ إليك ولم ترأف بي، ولا دموعي، البارحة؟ لم تشفق عليَّ رغم آلامي.

- أقسم أنني لن أعيدها ثانيةً.

صدَّقته، نعم صدّقته تلك الطفلة البريئة: قالت: لربّما يتغيّر غداً، أو هو متأثرٌ حقّاً بموت والدته. فمن يخسر الأم، يخسر الدنيا بأكملها.

كيف لا تسامحه وتبحث له عن عذر! لم تعهد تصرفاتٍ شبيهة سابقاً. قالت في سرّها: قد يحصل هذا مع الجميع! هو رجلي، وله الحق والسلطة عليّ.

أقنعت نفسها بهذا؛ فقد عقدت وزوجها قرانهما عند شيخ، وهي لمّا تختبر بعد الحياة وخفاياها، ولا المجتمع وأمراضه، ولا السلطة الذكورية، ولا السلطة الدينية التي ستسلبها حياتها مستقبلاً. بحثت لرجلها عن ألف عذرٍ وعذر كي تسامحه. بسذاجةٍ وبراءة بحثت عن ألف سببٍ وسبب. لكنْ ثمّة عاملٌ رئيس نصب عينيها، سببٌ يذكِّرها في كل لحظة هذا: "أمكِ مريضة! احتملي الألم ولا تتسبّبي لها بعذابٍ فوق عذاب. لا تجعلي وجعها مضاعفاً، ألا يكفي ما تعانيه؟! تجلّدي، لربما يتغيّر في الغد. اصبري، من أجل أمك...

و هكذا رضخت ضحى لواقعها الأليم: الحقيقة الصعبة جليّة أمامها؛ أمها تصارع مرضاً خبيثاً، ولا تريد أن تتسبّب لها بالمزيد من القلق والهمّ. عليها أن تتجلّد قليلاً علَّ حياتها الزوجية تتحسّن.

تواطأ القدر معه عليها؛ كانت هذه ألاعيبهما الأولى، هو والقدر. انها المرة الأولى التي يقف فيها القدر في صفّه، مع ذكوريته ومرضه وتربيته وتخلّفه ومجتمعه؛ تواطأوا جميعاً معه ضدّها. ستتواجه لاحقاً مع القدر في مناسباتٍ عديدة، وفي صفعاتٍ وضرباتٍ جديدة. وستتواجه مع المجتمع، مع أمراضه وذكوريته كثيراً. تراهم جميعاً بعينيها: يقفون في زاوية المنزل، يتهامسون، يضحكون

ويتآمرون بخبثٍ عليها. لكنها لم تصدّق ما تراه؛ طفولتها لم توضّح لها الصورة على حقيقتها: رؤية مرّت أمامها فقط، مسحت أمطار دموعها، فسامحته. رضخت لمطلبه، تقبّلت قدرها، ويحدوها الأمل الآن بأن يتغير. قبّلت أمها، ودخلت لتصلّي في غرفتها: "يا ربّ اشفِ أمي".

كان هذا طلبها الوحيد؛ لم تطلب من الله أن يرأف بها، أن يكون معها ويمدّها بالقوة لتتخطّى تجربتها القاسية الأولى في الحياة. جلّ ما طلبت أن يشفي الله والدتها. سامحت من صار زوجها، صلّت وطلبت، ثم غفت. أغمضت عينيها على كابوسٍ مزعجٍ صفعها على خدّها البارحة، وأبرحها ضرباً. فربّما حين تستيقظ في الغد، سيحمل لها "الضحى" حلماً أجمل.

-4-

اسمها ضحى. تعيش هناك، حيث ينام القمر في سريره الأزرق وحيث تصحو الشمس من سريرها الوردي، حيث تتلألأ النجوم لتشكّل عقداً من الماس.

كانت تنام، وتصحو وتحلم بيومها هذا: يوم تُزَفّ أميرةً إلى حبيبها بالثوب الأبيض.

اليوم عرس الضحى، عرس القمر والشمس وستشهد النجوم على فرحهما.

قرأت ذات يوم قصةً إغريقية تقول إنه قبل أن تولد الفتاة تزرع الآلهة في أحشاء أمها حلماً تشاهده مدّةَ تسعة أشهر لحين ولادتها. وبعد الولادة يبقى هذا الحلم يراودها ويكبر معها، ويُسمّى "الحلم الأبيض". وتقول الأسطورة إن الطفلة في أشهرها الأولى تضحك في سباتها عندما يراودها هذا الحلم. وقد أخبرتها أمها يوماً أنها كانت تبتسم وتضحك كثيراً خلال نومها. وجاراتُها كنَّ يقلْنَ إن الملائكة يكلّمونها، لكنّ الحقيقة أن ضحى كانت تحلم بليلة زفافها منذ الصِغر. وها الأسطورة تعيدها الآن إلى أحشاء أمها حيث كانت تشعر بالأمان وتحلم بالفستان الأبيض.

مرّت الأيام، وكبرت ضحى. وها قد أتى اليوم الذي ستلبس فيه فستانها الأبيض وتُزَفّ إلى فارس أحلامها عروساً جميلة. لم تغفُ ضحكتها أبداً في تلك الليلة، ولم تغادر الابتسامة شفتها الإلهية. كان الفستان يراقص جسمها من جيدها حتى أخمص قدميها. لا مكان للحزن الليلة، نسيت كل شيء.

عامٌ بكامله انقضى على خطوبتهما. واليوم تدخل بيته للمرّة الأولى؛ تدخل مخدعها الزوجي الذي لطالما حلمت بدفئه. بيتٌ أسّساه معاً بانتظار اليوم الكبير. تركت كل شيء خارجاً: دموعُها،

ألمُها، بكاؤها، كل هذا ليس له مكان داخل بيتها الأبدي. كانت تردِّد هذا في سرّها، بيد أن القدر يهمس لها بخبث: "ليس لوقتٍ طويل..."

لم تتنبّه للقدر الذي ظهر بمكره وحقده داخل زوايا المنزل؛ طغت فرحتها على كل طاقة سلبية تسلّلت إلى مسامات روحها المحلّقة عالياً.

بخجل دخلت إلى غرفتها. هو نائمٌ في السرير بانتظارها. خلعت فستانها الأبيض، خلعت "الحلم الأبيض"؛ ذاك الفستان الذي حلمت به مذ كانت ثمرة صغيرة تتكوّن في أحشاء أمها؛ ذاك الحلم الذي ألبستها إياه آلهة الأسطورة. ظنّت أن الحلم سيدوم أكثر، لكنها لم تدرك أن السعادة البيضاء لا تدوم لأكثر من ساعات معدودة، أن الفرح يأتي بغتةً في لحظة لا نكون فيها مستعديّن له. الفرح لا يستأذن ولا يطرق الباب؛ حالما يأتي، علينا الدخول إلى مملكته. الاتّحاد به. الانصهار معه لنغدو نحن الفرح.

خلعت فستانها الحلم، أزالت مساحيق التجميل عن وجهها، وارتدت رداء نوم شفّافاً كاد لرقّته أن يلامس روحها البيضاء ويعكسها. اقترب "رجلُها" منها، عانقها من الوراء، أزاح شعرها عن عنقها، طبع قبلة على رقبتها الملساء، التقط يدها، ضمّها إلى صدره بقوة وارتميا في أحضان سريرهما الزوجي...

استيقظت في الصباح، وروحها ترقص على شفتيها، وشفتاها لا تطبقان؛ شقّتهما بسمةٌ فَرِحة. عروسٌ في يومها الأول! تكاد الحياة لا تتسع لها هذا الصباح؛ هو صباح أنوثتها الأول. ما بين المساء والصباح، تفتّحت أنوثةٌ أطبقت عليها السنوات، وسال نهر العسل والرحيق من بتلاتها. مساءٌ تكفّل بساعات قليلة بتفجير قنبلتها الأنثوية؛ وردةٌ تفتّحت على ضوء القمر ونور النجوم الراقصة.

نهضت من سريرها، وقفت أمام المرآة، لمست جسدها، وضعت يدها على وجهها وتأمّلته مليّاً: كبرت شفتاها مساء أمس، وصدرها العارم ينضح أنوثةً وإغراءً. شعرت أنها تغيرت؛ لم تعد كما كانت البارحة، ليست "هي" نفسها؛ رحلت "هي" الفتاة وحلّت مكانها السيدة "هي"...

"حسناً، لكنني أشعر بشيءٍ جميل. لا أدري، كأن السعادة تحبو على جسدي"، حادثت نفسها في المرآة بصوتٍ خفيض، وابتسمت.

- صباح الخير.

- صباح الخير حبيبي، متى استيقظت؟

استيقظ "الأمير النائم"، نهض من سريره ودخل مباشرةً إلى الحمّام.

لم يطبع على خدّها قبلة صباحية تغازل أنوثتها التي استفاقت توّاً. لم يلحظ شعراً أسود غطّى جسده طوال الليل، لم يلتفت إلى صدرٍ تكوّر بين يديه، لم ينظر إلى عينين حدّقتا إليه لساعات وساعات في الليل! مرّ أمام أنوثتها كسائح يمرّ بكاتدرائية إسبانية قديمة من دون أن يتأمّل جمالها المعماري القديم.

"حسناً! قد تكون هذه حالته في الصباح..." كلمّت نفسها، وحيدةً، للمرة الثانية؛ الأولى لتغازل جمالها، والثانية لمواساته.

انقضت ساعات النهار بكلمة هنا، وأخرى هناك؛ كلمات، تُعدّ على أصابع اليد، تكفّلت بانقضاء النهار على "العريسين". وأتى الليل، وها "العريس" يتحوّل إلى شخصٍ آخر، رجلٍ يقدِّر المرأة التي بجانبه بقبلات شهوانية وفحولة شرقية؛ غريزة تستيقظ ليلاً وتنام في النهار، نرجسية حمقاء تلبس عباءة ذكورية متغطرسة تستيقظ على فريستها في الليل "لالتهامها" لتتحول في الصباح إلى صمتٍ مطبق تخرقه بضع كلمات تتسلّل بخفر بين ذبذبات ضجيج التلفاز.

ألم يلاحظ أنوثتها بعد؟! ألم يشمّ شذى عطرها المتفتّح حديثاً؟! لِمَ لا يداعب بتلات وردته الجورية؟! قليلُ اهتمام، قليلٌ من الماء لا يضرّ بالورد في النهار! قد تحرق الشمس وتلسع أوراقه، لا ضير من قبلة تحمل رذاذاً! يذبل الورد ما لم يُسقَ ماء الحياة، ينبت الشوك على جذوعه إذا لم تقلّمه يدٌ مُحِبة! توّاً تفتّحت حديقة فيها ورودٌ من كل لونٍ، فليقطف "العريس" وردة كلّما شاء، وليَسْقِ الورد في كل ليلة ليتفتّح في الصباح! ضحى حديقةٌ يقطف ورودها في كل ليلة، لكن الورد يبس لشِحّ المطر...

ثمّة صوتٌ يكلّمنا دوماً. نسمعه، ولا نعرف مصدره. صوتٌ شبيه بالإحساس، لا بل هو إحساس على هيئة صوت. لا نعرفه، نشعر به ونسمعه فقط. نلتمس أقواله وحقيقته بمرور الأيام، وقد يظهر لنا أحياناً في المنام، على شكل رؤى، حلم يكاد يكون واقعاً؛ نهلوس به، يكلّمنا أثناء فرحنا،

أثناء استحمامنا، يجلس معنا إلى طاولة الطعام، يتناول غداءنا أو عشاءنا، يستغل كل لحظة نكون فيها وحيدين، يستغل انفرادنا بأنفسنا، حتى يصبح أفكارنا وقناعاتنا ومفاهيمنا أحياناً، إلى أن يغدو الحقيقة أو الواقع الذي نتعامل معه ونعيشه.

هكذا باتت الضحى؛ أصبحت تتعامل مع حقيقتها بواقعية صِرف مذ علّمها الإحساس للمرة الأولى، مذ شعرت بالصوت من كلمته الأولى. باتت تعرف مآلها، الطريق الذي ستسلكه، وتعاملت مع الواقع بشفافية كاملة. لم تكلّم أحد، لم تخبر أحداً بشعورها، لم تفصح عن القلق والخوف اللذين يعتريانها من هذه العلاقة التي أصبحت بلا رجعة. فمنذ أن صفعها القدر صفعةً أولى، عرفت أنها ستتألم: أدركت أن عليها أن تتعامل مع قدرٍ مؤلم، غدّار، خائن، كاذب، مزاجي ومريض. لكنها صمتت. أذعنت له، وسكتت.

تتكوّن الفراشة داخل الشرنقة، ثم تفرز سائلاً يذيب خيوط الحرير فتخرج من مقدمة الشرنقة في ساعات الصباح الباكر. وعند خروجها، يكون جسمها مبتلّاً، وأجنحتها مطويّة لا تستطيع الطيران. ومدّة حياتها قصيرة جداً، ولا تتجاوز أسبوعين. بعد مضي فترة وجيزة من حياتها، تنشط للتزاوج.

ضحى فراشة، كأنها تقمّصت روحها. أذابت خيوط الحرير لتطير إلى الضوء، من دون أن تعلم أنه سيحرقها إذا اقتربت منه كثيراً. خرجت في ساعات "الضحى" الأولى، لكأنها تشارك الفراشات مصيرها وحياتها. أرادت أن تتزاوج مع الضوء، من دون معرفة أنه سيحرقها يوماً؛ وهل يعلم الفَراش أن الضوء سيغدر به؟! لو تعلم الفراشة أن الضوء سيلدغها، لمَا خرجت من شرنقتها في ساعات الضحى، لكانت استغلّت ضوء القمر الخافت ولأخفت جمالها عن الأعين.

ضحى فراشة تسير نحو الضوء بجناحيها، تطير بصمت الفراشات الجميلة، دون أن تخبر أحداً بوجعها.

مرَّ أسبوع على زواجها، الافتراضي، الذي كانت تحلم به. أسبوع بكامله كان كفيلاً بتفتّح الشرنقة و تحوّلها إلى فراشة موجوعة لسعها الضوء ثانيةً. لكنْ هذه المرة أحرق الضوء ما تبقّى منها، ما بقي من أحلامها وآمالها وطموحها؛ لم يحرق الضوء الأسبوع الأول من حياتها الزوجية فحسب، بل حياتَها كلها.

مع الضوء بدأ كل شيء، ومعه احترق كل شيء؛ هنا بدأت رحلتها مع الألم والمعاناة. هنا، مع الضوء، ستسافر على أجنحة الوجع والقساوة إلى دنيا الواقع.

فجأةً عاد الوحش إلى طبيعته، عاد إلى جسده الذي تخلّى عنه لما يقرب العام تقريباً. عاد الذئب ليستوطن روحه ويستيقظ منتصف كل ليل.

حادثة صغيرة في الأسبوع الأول على زواجهما كانت كفيلة بأن تعيد الذئب إلى وِجاره. هذه المرة الوحش قوي جداً، فتّاك؛ كأن غيابه الطويل قد أمدّه بقوةٍ كانت تنقصه، كأنه غاب قاصداً العودة بوحشية أكبر.

- كيف تكلّمينني هكذا أمام العمال؟

- لم أقل شيئاً، سألتك فقط لِمَ تهين العامل بهذه الطريقة؟ حتى هو لم يسمعني.

- أنا سمعتك، هذا يكفي. كيف تتدخّلين في شؤوني الخاصة؟! أنت هنا جارية فقط، وأنا رب هذا المنزل.

- هل تسمع أذناك ما يقول فمك من حماقات؟! ألم تكفِك إهانة العامل المسكين ومعاملته بطريقة غير إنسانية؟! وها أنت تهينني وتنعتني بالجارية أيضاً! هل هذا ما تراه فيَّ: جاريتك؟!

- لا بل أنت عاهرة أيضاً...

بِضع صفعات على وجهها، كمقبّلات فقط. أمّا الوجبة الدسمة فستتلقّاها بضربٍ مبرح على كل جسدها: أسقطها أرضاً وشرع يضربها بقوة؛ على ظهرها، على بطنها، على رِجليها. كأنه دخل ساحة معركة ويجب أن يخرج منها منتصراً. لم يلحظ حتى بأنه يضرب امرأة! لقد تخطّى حدود الوحشية؛ لم تعد امرأته، ولم يعد زوجها! تحت وطأة لكماته، لم تسقط ضحى فقط، بل سقطت القيم جميعها.

تخطّت وحشيته كلَّ حدّ: فجأةً انقض ذاك الذئب الكاسر على عنقها ليعضّها! لم تعلم "الفريسة" ضحى في تلك اللحظات إن كان مستأذباً أم مصّاص دماء. تارةً ينقضّ على عنقها

ليعضّها كمصّاص دم، وتارةً أخرى ينقضّ لعضّ جسدها! تارةً يريد أن يطفئ ظمأه بدمها، وطوراً يريد التهام لحمها.

غابت في عالمٍ آخر، لا تدري إن كان الصوت الذي يكلّمها هو نفسه الصوت الذي تسمعه، ولا تعرف مصدره، أم إنها ارتحلت إلى عالم آخر جراء الضربات الموجعة.

لم يكتفِ بهذا، بل أمسكها من شعرها وجرّها في أرجاء المنزل.

- سأمسح بك الأرض لترَي إن أنت جاريتي أم لا...

سحبها من شعرها على أرض المنزل. تقصّد جرّها في الغرف كلّها، منفّذاً كلامه حرفاً حرفاً: أراد أن يفهمها أنها جاريته. هي في المنزل لخدمته فقط؛ لمسح الأرض وكنسها. تقصَّد مسحَ الأرض بجسدها ليعلِمها مرّةً أولى وأخيرة أنها ستكون جاريته، ليس إلّا. أدخلها إلى غرفتها وعاود لكمها وركلها على بطنها ثانيةً وثالثةً، ثم عضَّها غير مرّة. بلحظة خرج عن إنسانيته وتحوّل إلى حيوان ضارٍ. بدت حيوانيته مستترةً في "إنسانية" لسنوات، بل بدا أنه من نوعٍ آخر، من فصيلة مختلفة، من الوحوش! فالحيوان يقتل ليأكل، وغريزته تتحكّم به على هذا النحو. أمّا هذا الوحش فهو يتحكّم بكل شيء: بعصبيته، بطبعه، بغريزته، بمرضه، بتربيته...

طبيعتها الإنسانية دفعتها إلى البكاء والصراخ، فلا منجد لها، ولا مخلّص، سوى دموعها. بيد أنه كان يستشيط غاضباً أكثر مع كل دمعة من دموعها؛ كلّما بكت، كلّما ازداد إصراراً على ضربها ليعاقبها ويثنيها معاً عن البكاء والصراخ! قال لها:

- اقبعي هنا، وسأعود حين تتوقفين عن البكاء. وإن عدت ورأيتك تبكين، سأضربك ثانيةً. هل تسمعينني جيداً؟! سأقتلك إن بكيت.

لم يؤثّر فيه دمعها، ولا رقّ قلبه لوجعها. أزعجه أنينها، ألمها، صوتُ دموعها المتساقطة كزجاجٍ تكسَّر!

تحت هول الصدمة لم تستوعب ما حصل معها. تحرّكت إنسانيتها حين رأته يوبّخ عاملاً بفظاظة، لكنها انقلبت عليها: ساقتها إنسانيتها إلى الذبح!

راحت تلوم نفسها لإنسانيتها.

جلست في سريرها تبكي، ماسحةً الدماء باكمامها عن جسدها. لحظات والتقطت أنفاسها: وقفت أمام المرآة تنظر إلى جسدها النازف، ثم إلى الكدمات الحمراء والزرقاء على جبينها ومحيّاها: لم يعد هناك وردٌ! ذبلت أوراق الوردة، تساقطت وماتت! انتحر الرحيق! علَّق نفسه على الشوك.

"من أنا، من هو، ماذا حصل؟! من ذاك الذي كان هنا؟! كيف دخل ذاك الوحش إلى مخدعي الزوجي؟! ألم يعدني بأنه سيتغير؟! ماذا حدث، وأين ذهبت وعوده؟! أين ذهب ذاك الرجل الذي أحبّني؟! يا إلهي! ماذا حصل توّاً؟! لا، لا. أنا لا أستوعب ما مررت به..."

ها ضحى تكلّم نفسها، تحدِّث وجعها، تخاطب جراحها، تحكي مع جسدها المخضَّب بالدم، تكلّم الرضوض والضربات مواسيةً عنقها ويديها، بطنَها ورِجليها.

تحوّلت فجأةً إلى كتلة دمٍ ودمع.

الصدمة تنهشها، تتآكلها من داخل، الآن.

لكن لا وقت للتفكير بالألم، الوقت يداهمها، وسيعود الوحش بعد حين، وهو لا يريد رؤيتها تبكي: "هذا يكفي! إن يعدْ ويرَني دامعة، ضربني ثانيةً. لا، لا أحتمل أكثر. لا أستطيع مقاومته. لا أقوى على صدّه... لِمَ لا أذهب إلى بيت أهلي؟! نعم، بيت أهلي قبالة بيتي. نعم، سأذهب وأشتكي لأمي. سأتصل بأبي وأخبره بكل شيء. سأطلب الطلاق. لا، كيف أطلب الطلاق ولمّا يمض على زواجنا أسبوع؟! ماذا سيقول الناس؟! هل سيصدّقون أنه ضربني بدون سبب؟! وحدي من يعرف مشكلته... أنا من تورّط في مشكلته حتى غدوت مشكلته! هل سيصدّق الناس أنه مريض نفسي؟! من المؤكد أنه يعاني من مشكلة نفسية؛ يتصرّف على هذا النحو من يعاني من خطبٍ ما. يا إلهي! ما هذه المصيبة التي حلّت بي؟! أمي، نعم أمي، مريضة، فكيف أخبرها ما حصل؟! لن تحتمل وقع الصدمة وستزداد أوجاعها! لكن... لا، يجب أن أرحل... يجب أن أستيقظ من هذا الكابوس... لا خلاص لي سوى بالهروب..."

تراكمت الأسئلة في رأسها مثلما تراكمت الدماء متجمِّدةً فوق جروحها. لا خلاص لها سوى بالفرار من وكر الذئب...

تراكمت أسئلتها تلك في لحظات ومدّتها بالقوة لكي ترحل. همّت لتخرج من الغرفة، ولكن... عاد القدر ليقف في وجهها، ليصدّها، ليثنيها عن عزمها. عاد فتواطأ مع الذئب الكاسر ضدّها: لحظة استمدّت القوة من أوجاعها نفسها، سمعت باب البيت يُفتح... لقد عاد الوحش إلى وكره... خرج ليصطاد الهدوء، وليعود إلى طريدته التي تنتظره في المنزل. في العادة يغادر الوحش وكره ليصطاد في الخارج، ثم يعود إلى مخبئه ليهدأ ويرتاح. لكنْ مع ذاك "الوحش الضاري" انقلبت قوانين الطبيعة راساً على عقب؛ طبيعته لا تستوي تحت أي قانون بشري أو حيواني: يعود هذا الفصيل المختلف من الوحوش البشرية ليصطاد في الداخل! ومن يصطاد؟! "حبيبته الأليفة"!

فتح باب الغرفة ودخل. تفرَّس في وجهها، أمّا هي فلم تجرؤ على أن تنظر إليه. تسمّرت على حافة السرير، رأسُها بين يديها.

- هل هدأتِ؟

بِمَ تجيبه؟ بماذا تردّ؟ هل تقول "نعم هدأت" - وكأن شيئاً لم يكن - "نعم، لا بأس، أنتَ توتّرت، وأنا أستحقّ هذا..." ستجيبه بأن يعاود الكرّة لأنها تستحق هذا! فمن هي هذه الأنثى لتجرؤ فتدافع عن عامل أُهين؟! نعم، تستحقّ أكثر من هذا بسبب إنسانيتها! عليها أن تسرع إلى رجلها المعظَّم المفدّى، وتأخذه في أحضانها، وتشكره على تلك اللكمات والضربات، وعلى ذاك السباب الذي تفضَّل به عليها وتكرَّم.

دخل الغرفة وجلس بجانبها، التقط يدها، قبَّلها، ضمّها إليه!

"سامحيني، أنا أخطأت".

نعم! تكفي كلمة "سامحيني" لكي تنسى... تكفي قبلة منه على يدها لتبرئة همجيته... يقترب منها، يقبّلها على خدها، يتودَّد إليها! حالة نفسية لا تجد تفسيراً...

- ماذا تفعل؟! أرجوك توقَّفْ.

- قلت لك سامحيني. أعترف أنني أخطأت، لكنك تعرفين: لا أستطيع السيطرة على نفسي وغضبي.

- فعلتَها منذ سنة، وجهدتُ لنسيان فعلتك. أوهمت نفسي بأنك تغيّرت، لكن للأسف: أنت لا تزال نفسك... لا داعي للكلام أكثر، أرجوك أنا أتوجّع، وصورتك وأنت تضربني أفجعتني ولست بقادرة على محوها من رأسي.

- تعالي، سأغيّر هذه الصورة...

- لا، لا أستطيع! ماذا أنت بفاعل، أأنت مجنون؟!

- اقتربي منّي، تعالي... ما الصورة التي تريدينها لي، حدّدي؟ هل تودّين استعادة تلك الصورة...

- هل تهدّدني؟ كيف تطلب منّي علاقة جنسية، وقد ضربتني توّاً؟!

- أريدك أن تسامحيني.

- لاااااا، أرجوك لاااا...

- اصمتي، قلت لك اصمتي.

ارتمى فوقها، فوق جرحها النازف، فوق دموعها وأوجاعها.

رمى بنفسه فوقها ليلتهمها بطريقة أخرى؛ التهمها سابقاً بالعنف والضرب، والآن يلتهم جنسياً ما بقي من جسدها! هي زوجته، و*أقانيم* الشرع والدين وموبقات المجتمع تقول "هي حلاله"! يحقّ له أن يلتهمها جنسياً باسم هذا كلّه...

هل هو يقبّل جراحها، أم يغتصب تلك الجراح؟! ماذا يفعل؟! لم يجفّ الدم عن جسدها بعد! هي "حلاله"، لكنه يغتصبها! يقتلها مرّتين: يذكّرها بأنها عاهرته الآن. سبق وقال لها "سأريك أنك جاريتي". والآن يريها كيف إنها عاهرته، يفرغ فيها تخلّفه ومرضه وقرفه.

أذعنت له، استسلمت لقتله روحها، وتقبّلت بصبر وصلابة ما يحصل معها خوفاً من الضرب وخوفاً من وحشٍ ينام في عقله المريض؛ لا تريد ايقاظه كي لا يصبّ جام غضبه عليها. تحمّلت الضرب والعضّ وشدّ الشعر والرّكل، وستتحمّل قرفه الآن، لا فرق. نعم، لا فرق بين وجع الضرب ووجع الاغتصاب. كلاهما يصبّان في خانة الألم: الأول، ألم الجسد. الثاني، ألم الروح.

لم يكفِه إيذاءُ جسدها، هو متعطّش لإيذاء روحها؛ تدمير ممنهج لإنسانة اسمُها زوجته.

أراد تدميرها ليلقّنها درساً لن تنساه؛ درساً يقول إنها جاريته وعاهرته...

أنهى مشروعه الكبير، مشروع تدميرها، إيذائها جسدياً وقتلها روحياً.

أفرغ تخلّفه ومرضه فيها ومضى. اغتسل من جريمته ورحل، لكنه نسي أدوات جرمه. كما نسي ضحيته: ضحى تنزف في سريره الزوجي الآن. بقيت عارية. استلقت على ظهرها تنظر إلى السقف، مذهولة! لا يحتمل يومها صدمتين: جسدية ونفسية. كيف تكمل حياتها بعد اليوم! هذا حلم تجاوز صفة الكابوس... هو دوّامة، هذيان، متاهة. وضحى الضحية لا تدري مكانها وقد صارت في اللامكان. تعاود الأسئلة زيارتَها؛ أسئلة، وأسئلة وأسئلة وما من جواب يسعفها:

"لِمَ استسلمتِ له؟! لِمَ لم تقاوميه؟! فليضربكِ، وماذا بعد؟! لقد ضربك، فليعاود الكرّة! لماذا جبنتِ أمامه؟! ماذا تنتظرين؟! ارحلي! هيّا استجمعي بقاياك وارحلي! مجرم، أنت تعيشين مع مجرم تحت سقفٍ واحد؛ مجرمٌ الشرعُ في صفّه، والمجتمع في صفّه، والكون في صفّه، قومي هيّا، ارحلي..."

بصعوبة استجمعت ضحى نفسها. نهضت من السرير، دخلت الحمّام، تقيّأت ما في داخلها، ارتمت أرضاً كغزالٍ جريح أنهكته أنياب أسد فاستسلم لموته المحتوم متقبّلاً تحوّله إلى وجبة مسائية.

فتحت الدش، وقفت تحت الماء علّها تغسل آثار جريمته. علّها تغتسل من قرفه المتبقي على جسدها. لكنها أدركت أنها عالقة في هذا القرف، لا مفرّ منه بعد الآن. بكت حتى انهارت قواها. ماء الدنيا كلها لن يزيل آثار هذا اليوم الطويل! انه يوم مجرمٍ دمويٍّ قاتل.

عادت إلى غرفتها، إلى ساحة الجريمة تلملم الأدوات التي خلّفها، جلست في زاوية السرير وغابت... غابت في ذكريات طفولتها البريئة، اشتاقت إلى تلك الأيام. كم تتمنّى لو يعود بها الزمن، ولو لبرهة، إلى ذاك الماضي الجميل! لو ينتشلها من مكانها المشؤوم، لو يعيدها إلى بيت أبيها، وإلى حيث كانت تلعب مع أطفال الجيران، لا همّ تحمله، ولا شيء يعكر صفو حياتها، كما كانت في طفولتها حيث همّها الأكبر كان ألّا تتلبّد السماء بالغيوم وتمطر فلا تستطيع اللعب خارجاً، حيث إذا بكت فلأن لعبتها القديمة انكسرت.

ضحى تبكي الآن لأنها هي نفسها انكسرت...

كانت أحلامها صغيرةً، بعمرها: كان حلمها الأجمل أن تكبر وتلبس الكعب العالي مثل الفتيات الأخريات. كبرت الفتاة الصغيرة، لكنها لم تلبس الكعب سوى يوم زفافها... كبرت الصغيرة، ولن تكون كالفتيات... هي تتذكر الآن تفاصيل ذاك الماضي الجميل، تذكر يوم عاد والدها من السفر وأهداها لعبة بفستانٍ أبيض كالفستان الذي طالما حلمت به. كانت اللعبة تتكلم، وتمشي، وعيونها ملونة مثل عينيها. فرحت بها فوضعتها في غرفتها لتنام إلى جانبها ليلاً. ذات يوم طلب ابن الجيران أن يحملها، فوقعت من يده وانكسرت مثل انكسارها هي اليوم؛ انكسرت يد اللعبة ورِجلها، ويومها بكت ضحى كثيراً، لكن ليس كبكائها الأليم اليوم. ظنّت أنها نهاية العالم، لكن العالم أوضح لها أنه لا ينتهي. لكنها رفضت أن تتخلى عن لعبتها المكسورة، بقيت تهتم بها وكأنها ستعيد إليها ما انكسر فيها. اليوم، مع انكسارها، عادت هذه الصور إلى ذاكرتها: تذكرت غرفتها في بيت القرية، وتذكرت تلك اللعبة "العروس" التي تقول ماما وبابا. هي، ضحى العروس الكسيرة، بأمس الحاجة الآن لهاتين الكلمتين، لكلمتيّ ماما وبابا. قلبها كان يقول لها دوماً: "متى ستتخلين عن طفولتك وتكبرين؟" لم تعلم أنها حين ستكبر، ستطعنها السنين وستترك في داخلها ندوباً عميقة لا تُمحى! فقد قلبها اليوم فرح الحياة، والحياة نفسها أفقدتها براءة الطفولة! تتمنى لو لم يطلب قلبها منها أن تكبر، تتمنى لو بقيت تلك الطفلة البريئة، تتمنى لو انتهى العالم يوم كُسِرت لعبتُها.

-5-

مضى حوالى الشهر على زواجها، وضحى تعدّ الأيام وكأنها تريد أن تصل إلى نهاية ما؛ تنتظر نهاية لا تعرفها، لكنها تنتظر أمراً ما: نهايتها ربّما! أدركت أن عذابها لن يتوقف إلّا بموتها. لا تملك الجرأة والقوة لطلب الطلاق، فهي تعلم عِلم اليقين أن المجتمع سيحاصرها بأقاويله إن هي تطلقت بعد شهر على زواجها. ويحاصرها من جهةٍ ثانية مرض والدتها، وكلام أهلها ربّما علاوةً على حكي الناس. هي عالقة بين فكّي كمّاشة، بين كلام المجتمع هنا وأهلها هناك.

وظهر أخيراً سببٌ إضافي أجبرها على البقاء في وكر هذا الوحش. أمرٌ ما توقّعته قطّ، ولم تحسب له حساباً: مع الضرب والاغتصاب الوحشيين، مع الإهانات اليومية التي يكيلها لها، مع همجيته غير المفهومة ضدّها والأحداث المتسارعة في غضون شهر، لم تحسب ضحى حساباً لمفاجأة مثل هذه...

عوارض الدوخة والغثيان والتقيؤ لم تكن نتيجة ضربها كل يوم، وأيّما ضرب! ظنّت بدايةً أن تلك العوارض سببُها الضربُ المبرح، إلّا أنها علمت أخيراً أنها حامل - *الجميلة حامل من الوحش* - كيف لا، وهو يغتصبها كل يوم! بذرةٌ منه وجدت طريقها إلى أحشائها لتزرع فيها حَمَلا سيغيّر حياتها ويقلبها رأساً على عقب.

ماذا ستفعل الآن؟! فكّرت بالطلاق، بيد أن كلام المجتمع ثناها عن عزمها. أقاويل الناس وتساؤلاتهم، وربّما الشائعات فيما لو رحلت، أرجعتها عن قرارها. كما رفدتها بقوةٍ استثنائية في مواجهة يومياتها الدموية، وساعدتها في عدّ أيامها ريثما تصل إلى النهاية المرتجاة. لِمَ استسلمت طوال شهرٍ كامل؟! وهل شهرٌ مدّةٌ كافية كي تحزم أمرها فتحزم حقائبها وترحل؟! هل خافت المجتمع حقيقةً؟! لِمَ أقنعت نفسها أن المجتمع لن يصدّقها، لن يصدّق بأن زوجها "العريس"

يضربها دونما سبب، ومنذ الأسبوع الأول على زواجهما؟! وأهلها، هل سيقفون إلى جانبها ويساندونها في قرارها، أم سيلصقون العلّة أو التهمة بها؟! هل من أحدٍ رآه يعنِّفها ويضربها غير جدران غرفتها الأربعة التي غالباً ما أغمضت عيونها في كل ليلة كي لا تراها تتعذّب، كي لا تكون شاهدة آخر الليل على تلك الظلمة الظلماء المحدقة بالضحى؟! من يشعر بألمها سوى حيطان غرفتها التي تبكي معها يوميا؟!

نعم، خافت "ضحى" لأنها تعي تماماً أنها ابنة مجتمعٍ شرقي، ذكوري، طائفي، عنصري، ولن يعطيها حقَّ الدفاع عن نفسها، بل حتى حقَّ الكلام! من سيصدّقها، و"بعلُها المفدّى" أستاذٌ في التمثيل، عليها وعلى الجميع، يوهمهم كما أوهمها بأنه يحبّها ويقدِّرها؟! من سيصدّقها فيكذِّبه، وهو ممّن امتهنوا الكذب والرياء ليخفي حقيقته؟! أي مجتمع ذكوري سيقف إلى جانبها، ويدعمها؟! هل يقبل بطلبها الطلاق فيعطيها حق خلع "زوجها"؟! هو مجتمع مجنون مثل هذا الأخير، ومتمرِّس مثله بالكذب والرياء، وله أنياب ومخالب وأظفار مثل "العريس المظفَّر"، ولن يدعها تفلت من أنيابه وهي الوجبة اليومية الأكثر دسماً لجنونه ومرضه وهوسه وشبقه الجنسي الذي لا يشبع! ومن قال إنه لن يلفِّق لها تهمة ما كي لا يدعها تنجو من سجنه؟! كيف لا، ونحن في بلد لا قانون فيه يحمي المرأة من العنف الأسري؟! كيف لا، ونحن في بلد يزوِّج الرجل بالمرأة إذا اغتصبها بدلاً من معاقبته؟! وهل يلبّي الشرع طلبها الطلاق إذا لم يقبل زوجها؟! في أسوأ الأحوال تهجره وتعيش في منزل أهلها، وهو يُبقيها على ذمّته ويكمل حياته كأن شيئاً لم يكن فيتزوج ثانيةً وثالثةً ورابعةً طالما يعطيه الشرع هذا الحق، حقَّ نكاح ما طاب له من النساء وهو الشِق الذي يتوقّف عند هذا من دون الأخذ بالوجه الآخر للشرع: معاملة النساء معاملة حسنة واحترامهن. هل يدعها تفلت من مخالبه، وما هو سوى عيّنة مصغَّرة من مجتمع لا يرى المرأة إلّا "وليمة فوق السرير" بحسب قول الشاعر؟! كيف ستنجو منه، والجميع يتواطأ معه ضدها: المجتمع، الشرع والقانون؟! أليس القانون المجحف والشرع والتقاليد من يسيّر مجتمعاتنا العربية؟!

كل تلك الأسئلة والمخاوف راودت "ضحى" ليسقط قرار فرارها خارّاً تحت أقدام مجتمعٍ رجعي أسهم في خلق، بل أنجب وحيداً ذاك الوحش الذي يقاسمها فِراشها.

لكنْ ثمّة بصيص أمل يلمع في الأفق البعيد، آخر النفق: حلمٌ يتكوّن في أحشائها الآن، وسيساعدها على تخطّي الصعاب؛ ستستمدّ منه قوة الحياة والبقاء، ستعيش منه وتحيا لأجله - هكذا

فكّرت حين وقفت أمام مرآتها بأنوثتها الربّانية، عاريةً من كل ما عليها: ثيابها، ظلم الزوج، نفاق المجتمع؛ عارية من قيود أسرها كافةً خلال تلك الفترة القصيرة التي اتفق الجميع على تسميتها زواجاً.

كوَّرت يديها الاثنتين عحول بطنها مثلما تلتقط يدا الله هذه الأرض في مجرّتها الكونية؛ ملتقطةً الحياة النامية في داخلها، راغبةً بتحسّسها، بلمسها، بملاعبتها. تريد أن تحدِّثها، أن تخبرها بمدى حبها لها: هي الحياة الصغيرة القادمة التي ستعطي معنى لحياتها الآفلة المندثرة.

رسمت على ثغرها الإغريقي ابتسامة علوية: "صبي أم بنت؟!" تساءلت. "سيّان، حياتي أنت".

لم تضع فتحة آخر كلمة "أنت"، ولا كسرة إعرابية. هي لا تعرف جنس مولودها المنتظر، وستحبّه صبيّا كان أم بنتاً. تنتظره أيّما انتظار علّه يعيد إليها حياتها المفقودة، المزهقة في مخدعٍ زوجي؛ علّه يمدّها بأمل استعادة بريق عينيها السماويتين؛ علّه يُرجِع لمحيّاها إشراقتَه، بياضَه الناصع كالثلج، الذي فقدته في عواصف شتاء الحياة؛ علّه يعيد سواد شعرها الذي غزاه الشيب باكراً من الخوف، وذلك حين يلاعب خصلاته بيديه الصغيرتين.

تأمل أن تتغير حياتها بمجيء مولودها إلى الحياة، أن يوقد شعلة حياتها عندما يرى النور. ستهبه الحب الذي تلاشى في فراشها الزوجي لغير رجعة؛ حبٌّ رماه زوجها بصفعة أولى على خدّ الورد، تلتها صفعات، ضربات، لكمات أردَتْه ووأدَتْه إلى الأبد.

التقطت رداءها ولبسته. خبّأت منحوتتها فيه من وحشٍ يرقد في غرفة مجاورة، متربِّصاً لجسدها الجميل لينهش منه ما استطاع، ليلةً بعد ليلة.

عادت إلى سريرها الإجباري، كسجينٍ يعود إلى زنزانته مرغماً وهو يعلم ببراءته وحيداً. نظرت إليه وتمتمت بصوتٍ خفيضٍ، مرتجف:

"كيف تزرع حياةً في داخلي، وأنت فارغ من كل ذرّة حياة؟!"

كيف تخبره بأنها حامل، بأن اغتصابها كل ليلة أثمر طفلاً، حياةً داخلها. آثرت الانتظار حتى الصباح لتخبره، فهي لا تعلم ردّة فعله إن أيقظت الوحش من سباته العميق.

- أنا حامل...

- كيف؟! كيف هذا؟! كيف تحملين وأنت تعلمين أنني عاطلٌ عن العمل؟!

- وهل حبلتُ وحيدةً، من تلقاء نفسي؟!

كلمة "أنا حامل" تكفّلت كالعادة بإنزال العقاب الشديد بها! ضرب، شتائم، إهانات من شتّى الأشكال والألوان! أملها الوحيد ألّا يكون طفلها، مصدر خلاصها، قد قضى في أحشائها. أملها هذا تلاشى حين رأت ذاك المجرم، الخالي من ذرّة إحساس أو إنسانية وحيدة، يوسعها ضرباً وإيلاماً. لم يكترث لطفله الجنين في أحشائها، لم يأبه لكونها أمّاً حاملاً الآن، وبمن؟ بابنه! بل تمادى في ضربها متقصِّداً قتل، إجهاض، جنينها الذي أتى بلا موعدٍ أو استئذان (منه)؛ كأنها هي المسؤولة الوحيدة عن حَبَلها؛ كأن اغتصابها كل ليلة، ومتى طالت أيمانه، لم يكن سبباً لحملها. أراد تشويه كل ما هو جميل في حياتها! حتى هذا الجنين، الذي لا ذنب له، أراد تشويه صورته في نظرها! فهي، في كل يومٍ يمر، تحبه أكثر: تكلّمه عن طفولتها، وعن طفولته معها في مقبل الأيام. تخبره كم تحتاج إليه، تحادثه عن تعلقها الشديد به؛ كأنها تستعجله أن يأتي ليخلّصها، وهو بدوره يركل "جدران" رحمها كأنه يخبرها بأنه يعلم كل شيء، كأنه يقول لها "لا تخافي يا أمّاه! أنا آتٍ لأخلّصك من عذاباتك، أنا بطلك الذي سيحميك ولن يجرؤ أحد على أذيّتك بوجودي! لا تخافي يا أمّي، لقد سمعت السماء استغاثاتك وأرسلتني".

أمّا الوحش الكاسر فأراد سفك دم الجنين في أحشاء أمه غير مكتفٍ بدمها! راح يركلها على بطنها ليسقطه، أمّا هي فجهدت لتحميه بيديها الداميتين. لكأنها تسدّ أيضاً بكفّيها النازفتين أذنيه كي لا يسمع: هو قابعٌ هناك، في أحشائها، في عالمه البعيد، وهي لا تريده أن يسمع بكاءها ويشعر بحزنها؛ يقولون إن الجنين داخل رحم أمه يسمع كل شيء ويشعر بكل شيء، لذا عملت لحمايته داخلها.

برغم حَمْلها الصعب جرّاء الضرب اليومي، والذي زادها عذاباً فوق عذاب، جهدت دوماً لإخفاء وجعها، لإسكات دموعها، كي لا يحزن طفلها: هو، داخل جدران أحشائها، "الشاهد" الوحيد على محنتها داخل جدران ذاك البيت، بيت "أبيه".

أمّا الوالد، الرافض ابنه قبل أن يولد، فيظل جالساً في البيت، عاطلاً عن العمل، يلاحقها وطفلها الجنين بنظراته شذراً مذراً، بشرٍّ مستطير، يضربها لأي سبب، وبدون سبب، كأنها إناءٌ

يُفرغ فيها عصبيته الرعناء و"فشّة خلق" عن فشله في الحياة.

لم تعد ضحى تخاف على نفسها بل على جنينها، هي تخشى أن تفقد الروح النامية في أحشائها: لم تعد تضع يديها على رأسها، أو تحتمي بوسادة، لردّ الضرب القاتل عنها، بل تضع يديها أو الوسادة على بطنها لتحمي ابنها: تتلقّى الضرب عنه؛ بطنُها، ومن فيه الآن، أهم من وجهها.

الأم الحزينة تعدّ في قلبها الآن الأيام، ومعها اللطمات التي تتلقّاها. وتعدّ الليالي، ومعها الشتائم التي تُكال لها. وتعدّ الساعات، ونوبات الغضب التي تجندلها وجنينها: لا تدري، أهي تحتسب أيام حملها كأي أمٍ بانتظار ولادة الحياة من أحشائها الممتلئة، أم تعدّ الضربات محتسبةً معها الفراغ، وحياتَها الضائعة بين جدرانه، بانتظار الموت! كلُّ أمٍ على هذه البسيطة تعدّ أيام حملها، تحصي دقّات قلب جنينها، تفرح بركلاته اليومية وتحتسبها، إلّا ضحى التي لا تدري ماذا تحتسب وماذا تعدّ وماذا تحصي وبماذا تفرح.

- لماذا ترمي الأشياء والأغراض التي جلبها لي أهلي؟!

- هكذا، لا أريد شيئاً منهم.

- لكنهم جلبوها منذ فترة، وقد مضى على زواجنا وقتٌ بعيد! لِمَ تتصرّف هكذا؟!

- أنا لا أريد حسنة أو مِنّة من أحد.

- أنا ابنتهم، وهذه الأغراض ليست حسنةً أو مِنّة.

- هي هكذا في نظري... ومتى يأخذني والدك للعمل معه في السعودية، ألم تفاتحيه بالموضوع بعد؟

- وهذا الطلب، أليس حسنة بنظرك؟!

قالت هذا، ولات ساعة مندم! كلماتٌ فتحت عليها أبواب جهنم...

لم تتقصّد مناكفته، بل أرادت محاورته بالمنطق نفسه؛ منطق تراه متخلّفاً وعفناً بأي حال. لكن ما العمل إذا لم تعجبه جملة، كلمة، نَفَساً، منها! فسرعان ما يستحضر أرواح شياطينه الحمر من

الجحيم لتشاركه تصفية الحساب مع امرأةٍ كانت حبيبةً ذات يوم، وغدت زوجةً وأمّاً مكلومة؛ مع صبية اسمها "ضحى"، وصارت فريسةً بين ليلةٍ وضحاها.

افتكرت بطلبه؛ الحل الأنسب لها ولجنينها أن يسافر إلى السعودية للعمل مع والدها علّها بهذه الخطوة تغيّر الأحداث لصالحها فترتاح من أيامها الدموية العصيبة، وبدوره يتقرّب إلى والدها ويبتعد عنها فيصفو ذهنه ويعود إلى رشده؛ يتقرّب من والدها، وعسى بهذا أن يوقف كراهيته لعائلتها التي يكيل لها الشتائم ذهاباً وإياباً، وعساها ترتاح هي من الضرب. هي لم تتربَّ على تلك الأساليب الهمجية ولا عَهِدتها، أساليب كانت سبباً أولاً وأخيراً لانتهاء حبّها بعد تلقّي الصفعة الأولى.

ضحى مؤمنة، ربيت في بيتٍ يخاف ربّه ويتضرّع إليه على الدوام: أب اغترب عن الوطن مضحياً ببعده عن العائلة لأجلها. وأمٌّ تقيّة تربّص لها القدر بمرضٍ خطير، ورغم هذا ربّت أولادها على التعبّد لله وحمده واحترام مشيئته والانصياع له.

لكنْ أية مشيئة هذه! مشيئة إلهية جعلت حياتها جحيماً يومياً، مسلسلاً تراجيدياً، مأساةً لا تنتهي فصولها! ستشكر الله رغم محنتها لأنها تربّت على شكره، ولن تطلب منه سوى الرحمة لها والرأفة بجنينها، ولن تسأله أو تحاجّه: "لِمَ أنا يا رب؟!". ستحمل صليب آلامها وصليب أوجاع أمها وصليب مأساة طفلها، وستمشي جلجلتها وما من أحدٍ يعرف نكبتها سوى جدران بيتها البكماء، الشاهدة على ليالي الظلم والاضطهاد.

أخيرا جَرُؤت، تخطّت خجلها الذي ثناها عن عزمها على إنهاء مأساتها... فلو امتلكت بعض الشجاعة لكانت واجهته من قبل، لكنَّ طبيعتها غلبت تطبّعها! والحفاظ على حرمة بيتها منعتها من "نشر غسيلها" حتى أمام أهلها...

لكن ليس بعد الآن: لقد حان الوقت لتجرؤ فتُخبر والدها عن سوء الحال، المادية أقلّه، وتسأله عن وظيفة لـ "زوجها" فيرتاح ويريح؛ يسافر، يغيب، فتحظى هي بمساحة فرح، بمساحة أمل، بمساحة كرامة، ويحظى جسدها بفترة راحة ولو وجيزة من الضرب.

طلبت ضحى من والدها وظيفة لزوجها يتحمّل بها مسؤوليته تجاه عائلته ومولوده الذي سيبصر النور قريباً. لم يكن الأب يعلم حال ابنته ووضعها الحقيقي ومأساتها، فاستجاب لطلبها ليسهم

بتحسين أحوال صهره الذي يُفترض منه تأمين حياة كريمة لابنته وطفلها. أليس هذا حال جميع الآباء، وهو أن يروا أبناءهم وبناتهم سعداء، ويعيشون برفاه وراحة حتى بعد زواجهم وزوتجهن؟!

حانت اللحظة التي انتظرتها ضحى طويلاً وسعت للوصول إليها. حانت اللحظة التي ستعيش فيها بسلام مع جنينها، وحدهما فقط، من دون أن يعكِّر أحد صفو هذا السلام الحميم والدافئ بين الأم ووليدها في أحشائها. كثيرٌ الكلام الذي ستقوله لجنينها، وكثيرةٌ الوعود والأمنيات التي ستحقّقها له حين يولد، وكثيرٌ الحب الذي ستعطيه إياه، وكثيرةٌ الأغاني التي ستغنّيها له. هي بحاجة للسلام فقط، وها لحظة السلام قد دنت!

أخيراً حزم حقائبه وسافر! ودّعته بعينين ملؤهما دموع الفرح والسعادة...

أخيراً أصبحت حرّة من العذاب والألم: تحرّرت من الصفعات التي أتتها دونما سبب أو سابق إنذار على مرّ الأيام، تحرّرت من الإهانات المسيئة لكرامتها وإنسانيتها، تحرّرت من العبودية لذاك "الفحل الشرقي" ألاسمُه زوج، انعتقت من قفص ذاك السجّان ألاسمُه قفصٌ ذهبي، من زنزانته المظلمة التي يفوح منها عفن الرجعية والتخلف. وضَّب حقائبه ورحل، وهي بدورها حزمت أمتعتها ورحلت. ستنتقل من سجنها "الإفرادي" لتعيش حرّةً مكرَّمةً في بيت أهلها، وهي لا تعلم كم سيدوم غيابه، وكم ستدوم سعادتها المؤقتة؛ كم تمنّت في دخيلتها لو يدوم إلى الأبد!

نعم، هي "حرية مؤقتة"، لكنها ستعيشها كأنها أبدية بحروفها الأربعة: الحاء، حب لانهائي تجاه من تحمله في أحشائها. الراء، رحمة غير مشروطة ستسكن أيامها القادمة. الياء، ياء ينبوع الحنان الأبدي الدافق من قلبها إلى قلبه. والتاء، تاء التضحية والتفاني حتى الرمق الأخير في سبيل مولودها الآتي.

أوصدت باب بيتها بعد أن فتحت طريق الرحيل أمام الشياطين الحمراء الراكبة "زوجها"، الساكنة روحه، والتي ساكنتها تحت سقفٍ واحد، لا بل في غرفة نومها، في سريرها، تقضّ مضجعها، تشارك "الوحش" ضرب "الجميلة"، تصفعها، تجرِّح وجهها، تدمي جسدها العاجي، أيقونة من أيقونات الخلق ولا أجمل.

طردت شياطين روحه المسعورة، أقفلت باب تلك الجحيم التي عاشت فيها واكتوت بنارها. أملها الوحيد ألّا تعود إلى ذاك البيت المسكون بدموعها، بعذاباتها، بآهاتها، بأنينها، بجراحها، و...

بصمتها. روحها تغثو منه لِما عانته وعاشته داخل جدرانه النارية. ستحاول نسيان ما تعرّضت له داخل هذا السجن الكبير المترامي الأطراف كبقعة عتمتها، فلا حدّ لأوجاعها. ستنسى، ستحاول أقلّه، الإذلال النفسي والعنف الجسدي! لكن كيف؟! كيف تنسى الإهانات، الصفعات، الركلات، الاغتصابات اليومية داخل هذه الجحيم! ستطوي صفحات "كتاب الموت" هذا، ستجهد لنسيان لحظات احتضار روحها. والأهم، ستقفل الباب على السر الذي عاشته وحيدةً، لم يشاطرها به أحد. وحدها الجدران استسرّت السرّ الرهيب، وها قد أقفلت الآن الباب عليه بين الجدران الخرساء؛ لو كان لها فمٌ لنطقت...

-6-

- قال لي الطبيب اليوم إنني حامل بصبي.

- جيّد، فَلْنُسمِّه حسن.

- حسن؟ و...

- نعم، حسن. ولِمَ فوجئت بهذا؟!

- لا، لا شيء. فليكن ما تريد: نسمّيه حسن.

انه صبي، وفرحتُها لا توصف. سيكبر حسن وسيكون سندها، سيحميها من محن الحياة، سيحميها من والده، ومن كل شخص أو أمر قد يحاول أذيّتها. وهي ستمنحه كل ذرّة حنان وعاطفة يحتاجها. لن تبخل عليه بشيء، لا بل ستعطيه حياتها إن احتاج إليها.

- يا له من إحساسٍ جميل أن تعلم الأم جنس مولودها المنتظر، وتكلمه وتناديه باسمه! انظري يا أمي، يركلني كلما ناديته.

الفرحة تخيّم على منزل أهلها، وتظلِّله. ألا يقولون "ما أعزّ من الولد إلّا ولد الولد!" فكيف لا يفرحون، وهم ينتظرون حفيدهم الأول ابن "الضحى".

لا تدري لغاية الآن لِمَ أسماه حسن، ولم تجرؤ على سؤاله. هذا ليس اسم والده، ولا عمّه، ولا أخيه، ولا تعرف أحداً من أقاربه يُدعى حسن، وإلّا لعلمت أن هذا الاسم يعني له شيئاً أو يذكّره بأحد، أو إن شخصاً عزيزاً على قلبه ومقرَّباً إليه اسمه حسن. لم تعرِ الأمر اهتماماً كبيراً ولم تفكّر به

طويلاً. جلَّ اهتمامها أن يجلب حسن الحُسنَ معه: ملؤها الأمل أن يزرع حُسناً، ولو قليلاً، في قلب والده علّه، إن لم يحبّها، أقلّه يعاملها بالحسنى ويرأف بها وينهي مأساتها: لا يهمّها بعد اليوم أن يحبّها أو تحبّه ثانيةً، أن تشتعل شعلة الحب في قلبيهما مجدداً؛ عرفت أنها ليست "الحسناء" التي ستحب "الوحش" ما دام في جسدها نفس. حين أخبرتها والدتها في صغرها قصة الحسناء والوحش، أخبرتها أن الوحش كان حسنَ المعاملة مع الحسناء فأحبّته، وقعت في هيامه، ما حوّله إنساناً بنهاية القصة فعاشا معاً حياةً سعيدة هانئة. لكنَّ قصتها لا تشبه قصص ديزني، واقعها ليس عالم ديزني الخيالي؛ هي تدرك هذا جيداً في دخيلتها، لكنْ يبقى أملٌ يسيّرها في الحياة، تعيش عليه، وهو أن حسن سيكون "رجلها"، يساندها، يشدّ أزرها، يدعمها: هو "حبها" الوحيد الآن الذي تحيا لأجله؛ هو من يُحييها.

الوحش ابتعد عنهما الآن، وهما يعيشان بأمانٍ بعد سكنها مع أهلها: يسكنها حسن الآن متنعماً بالدفء والحنان بعيداً عن ضرباته القاتلة التي قد تسقطه وأمه بضربة قاضية. ابتعد الخطر أخيراً وتنفّسا الصعداء، ولا شيء يعكّر صفو ضحى سوى مكالمة هاتفية من الزوج الوالد، اللازوج اللاوالد، كل يومين أو ثلاثة من السعودية فقط ليُشعِر والدها بأنه يعامل ابنته معاملة جيدة وأنه يحترمها ويحبّها. تمثيل دور الرجل المُحِب والزوج الحنون كان صعباً ثقيلاً عليه، لكنه أتقن هذا الدور جيداً كأنه محترفٌ مهنة التمثيل منذ أمدٍ بعيد. حتى هي نالها العجب: يكلّمها برقّة، بحنو وتودّد! لكنَّ تحايله لم ينطلِ عليها، فهي تعلم أنه يقيم في السعودية عند والدها، وأن خطأً بسيطاً، دعسةً ناطقة، ستودي به إلى الشارع وستُفاقم الأمور، وإلّا لكانت صدّقت تودّده وحنانه المفاجئين؛ لكانت صدّقت أنه تغير حقاً. هو يزِن الأمور بدقّة لامتناهية، عارفاً أن خطأً صغيراً منه الآن، أو كلمةً وحيدة من ضحى لوالدها، سيتكفَّل بافتضاح أمره، وضحى تعلم هذا.

خلال فترة وجودها في منزل أهلها، عادت الحياة بالتدرّج إلى روحها وجسدها. شُفيا من آثار الضرب المبرح وندوب الجراح النازفة التي خلّفها عليهما قبل رحيله، كأنه يقول لها متوعِّداً: "هذه الآثار والندوب باقية، وستذكّرك بوحشيتي أثناء غيابي". بيد أنه نسى أن الزمن يداوي جراح الأجساد المتألّمة والأرواح المكلومة.

عادت ضحى تتذكّر اسمها، تتذكّر معناه وهو شعاع الفجر الأول، انفلاقه من أسر العتمة، وانشقاقه بخيوط النور. فتحت نافذة روحها ثانيةً لخيوط الضحى الجميلة لتضيء داخلها وتدفئها

وتذيب صقيع وحدتها.

بدأت بإعطاء دروس خاصة لتلامذة من أبناء الجيران والحي. رفض زوجها الأمر بحجة "حكي الناس"! كأن إهانتها وضربها لا يدخلان عنده في خانة "حكي الناس"! أصرّت معلِّلةً الأمر بأنها تريد ملء وقت الفراغ: "الوقت ثقيل، ولا يمر بسرعة" زعمت علّه يقبل.

لم تزر بيتها خلال غيابه قطّ إلّا لتنظيفه أو لجلب أغراضها الخاصة. فذاك الجحر المظلم يذكّرها بأيامها السوداء، وبالنار التي لسعت بدنها وكوت روحها؛ كل حائط وزاوية فيه يذكّرانها بضربة آلمتها وأدمتها. ألم يثبتها غير مرّة إلى الحائط محاولاً خنقها! فكيف لا تذكر جدراناً شهدت ضربها حتى الموت؟! وكم من مرّةٍ جرّها الوحش الضاري على أرض ذاك البيت - الكهف، مفتخراً مزهواً بأنه يمسح البلاط بشعرها! ذكرى سوداء تجعلها لا تطأ تلك الأرض اللعينة، عازمةً على طيّ تلك الصفحة الظلماء ومسحها من ذاكرتها لئلّا تعلق في جينات جنينها.

في إحدى زياراتها الخاطفة إلى المنزل اكتشفت أفلاماً إباحية كان يخبّئها زوجها "الشريف" الذي لا يريدها أن تعلّم مخافة "حكي الناس" (!)، وسرعان ما عادت بها ذاكرتها إلى عمليات اغتصابها المتكرّرة: كرّ شريط اغتصابها الشبيه بسبحة المشاهد الخلاعية في تلك الأفلام فأيقنت أخيراً أن الطرق والأساليب الوحشية التي اغتصبها بها انّما كانت ممّا ترسّب في مخيّلته الموتورة من أفلام البورنو التي ضاعفت مرضه وهوسه الجنسيين. كان يربطها في السرير ويغتصبها، تماماً كما في أفلام الخلاعة رغم أن ممارسة الجنس في هذه اختيارية وبمحض إرادة أصحابها وشهواتهم. وحين ينهال عليها بالضرب، كان يغتصبها؛ يلجها بوحشية، بلا رحمة، وهي تدمى تحته وتصرخ من الألم: جسدها مجرّد أداة، مطيّة لشذوذه الجنسي.

ما ان علمت بوجود تلك الأفلام في منزلها، عادت إليها ذكرياتها المشؤومة وأيقنت أنها ضحية رجل يعاني من أمراض نفسية وجنسية حادة. لكونها متعلّمة ومثقفة، هي تعرف أن مشاهدة امرئٍ أفلاماً إباحية لا تعني أن هذا يعاني من مرض نفسي أو من خللٍ ما في حياته الجنسية. لكن الطريقة العنيفة التي كان زوجها يغتصبها بها، وضربها مع اغتصابها، ودخولها بطريقة حيوانية، وتصرفاته المقيتة بعد الانتهاء من استباحة جسدها وهتك حرمته، كل هذا أثبت لها بما لا يقبل الجدل أنه يعاني من مرض نفسي وانحلال أخلاقي يجعله مجنوناً يمثّل دور إنسانٍ عاقل رصين. هو مريض، لكن هذا لن يشفع له عندها.

هرعت ضحى مسرعةً نحو الباب، فتحته، وولّت هاربةً إلى منزل أهلها مخافة أن تعود ذكريات أيام الجحيم السوداء فتسمّم روحها وروح طفلها ثانيةً، مذعورةً من طيفه القاتم الذي مع تلك الذكريات، مرتعبةً حتى من فكرة وجوده في هذه الحياة، مرتجفةً ويقشعرّ بدنها من كون هذا زوجها.

دخلت غرفتها في بيت أهلها وارتمت باكيةً على السرير، كالأيام السالفة حين كان يضربها ويغتصبها فترتمي ناحبةً هامدةً في فراشها: ذكرياتها تغتصبها الآن!

تقتلنا ذكرياتنا الأليمة! هي شبيهة بقصاص يومي لنا، أو عقاب أبدي يرتبط بشعورنا إزاء ما ومن نحبّه أو نمقته: ماضٍ نحاول نسيانه، ولا نريد نسيانه أيضاً. ذكريات تختبئ في جعبة الأيام، في ذاكرة الزمن، ولا ندري متى تخرج لتكشف ما يعتمل داخلنا. ذكرياتٌ غالباً ما تكون قصاصاً أبدياً، فنخاف إيقاظها من غفوتها، وهكذا يغدو هذا الخوف عقاباً أبدياً مريراً لنا.

-7-

تمر الأيام وتسرع عجلاتها، ودقّات قلب حسن تكاد تلامس نبض قلبها.

مرّت الأشهر التسعة بسرعة، كأنَّ طفلها "يسرع الخطى" متشوّقاً للقاء أمه ولا يسعه الانتظار أكثر.

أوجاع المخاض تمزّقها، ها قد دنت اللحظة! لحظة اللقاء الأول والأجمل هي لحظة تلمس الأم وليدها الذي كانت تشعر به في أحشائها طوال تسعة أشهر: انها لمعجزة كونية، ولا أحد يستطيع تلمُّس هذا الشعور غير الأم.

اتصلت بزوجها لتعلمه بقرب ولادة طفلهما، فأشار عليها أن تذهب إلى المستشفى الحكومي القريب من منزل أهلها. عجبت وأهلها لهذا الطلب! حتى والدها في السعودية سأله عن السبب، لكن لا جواب ولا تبرير يعيد الأمر للطبابة بالمجان في المشفى الحكومي، إذ إن حالته المادية تحسّنت بعد سفره لعند عمّه، والد ضحى. وكذلك وضع أهلها المالي جيدٌ أساساً. أصرّ بدون مبرّر مقنع ولم يسمح لها بالذهاب إلى مستشفى خاص رغم علمه أن المستشفى الحكومي المذكور ليس فيه تجهيزات طبية متطورة ويعاني من قلّة عدد الفريق الطبي ! ألحّ أن تلد الصبي هناك.

استمرّ وجع مخاضها من الساعة العاشرة مساءً حتى السابعة صباحاً من يوم الغد. لم يكن هناك طبيبٌ مناوب كي يولِّدها ولم يطلبوا من طبيبها الخاص ليأتي. كانت وحيدةً في غرفتها، وإلى جانبها والدتها التي عاودت الاتصال بصهرها "المصون"، زوج ضحى، المرّة تلو المرة راجيةً عبثاً قبوله نقلها إلى مستشفى آخر، كما باءت اتصالات ومساعي والد ضحى لدى الصهر "سند الظهر"

بفشل مماثل. وبعد إلحاح الأم على إدارة المشفى، أُحضِر طبيبٌ في الصباح أجرى لابنتها عملية ولادة قيصرية.

لماذا يبكي الإنسان عندما يولد، ولِمَ يستمر بالبكاء طوال حياته؟! ولِمَ يموت ذارفاً دمعة أخيرة؟! لِمَ نمضي حياتنا ونحن نبكي، والفرح مكتوبٌ لنا للحظات؟! من قرّر لنا هذا المصير الأليم، ومن أراد لنا الشقاء؟! لِمَ يمضي الإنسان حياته في العذاب، ويندر أن يدخل الفرح نافذته؟! اكتظّ رأس ضحى بهذه التساؤلات لحظة سمعت صرخة طفلها الأولى وبكاءه.

أتوا به إليها. ضمّته إلى صدرها بشغفٍ وحنان وشاركته بكاءه، لكنْ بدمعة فرح. ها قد نادته للمرة الأولى: "ابني". شعورٌ لا يُوصف، ولا فرحة تضاهي فرحها في تلك اللحظات! اختلجها احساسٌ عميق لم تفقه سرّه؛ من أحسّت بنبضه في أحشائها طوال تسعة أشهر هو بين يديها الآن، تلمسه للمرة الأولى، تتلمّس بنبضه الطريق إلى قلبه الصغير الدافق بالحياة والأمل: "يا لهذا الإحساس الرائع والفريد!" قالت، ورسمت شفتيها بسمةٌ وعينيها ومضةُ رجاء.

كالإله حين احتضن هذا الكون في البدء، هكذا احتضنت ابنها؛ هكذا احتضنت كونها، أرضها، شمسها، نجمتها، قمرها الوحيد الذي سيضيء لياليها المظلمة. نسيت كل وجع المخاض، بل نسيت أوجاع أيامها وآلام لياليها وذكرياتها القاتمة مع زوجها، ونسيت الجراح والندوب التي حفرها على جسدها وروحها "بالحديد والنار": لحظة وقعت عيناها على محيّا الطفل "حسن" أسدلت ستار النسيان على الماضي: كأنها هي من وُلِدت، وُلِدت وابنها في اللحظة نفسها، صار عمرها من عمره.

حين أعادها الممرِّضون إلى غرفتها، فوجئت لرؤية صديقتها من أيام المدرسة نزيلةً في الغرفة نفسها. يبدو أنهم أدخلوا الأخيرة المستشفى حين كانت ضحى في غرفة العمليات. سُرَّت برؤية رفيقتها سروراً عظيماً، بخاصةٍ أنها هي أيضاً ستضع مولودها الأول. يا لهذه المصادفة الجميلة! كأن القدر جمعهما في غرفة واحدة ليذكِّرها بوجعها، بالدرب الذي اختارته بإرادتها من دون أن تعلم أنه سيكون جلجلة آلامها.

صديقتها تلك أحبّت رجلاً لم يوافق عليه أهلها، ما أرادوه زوجاً لابنتهم فهربت معه سرّاً وتزوّجا. لا أهلها، ولا أقاربها، يكلّمونها منذ ذلك الحين. حين رأتها ضحى في المستشفى وحيدةً مع زوجها الطيّب، تذكّرت قصتها وأدركت أن المصير الذي يختاره الإنسان بإرادته يرتدّ عليه بنتائجه

وتبعاته: هي، ضحى، كتبت مصيرها الذي اختارته بملء إرادتها رغم معرفتها، ومنذ البداية، أن الدرب سيكون وَعِراً، مليئاً بالصعاب، وكلّه حصى وشوك! إلّا أنها ظنّت أن زوجها سيتغيّر نهايةً، وستصل إلى قلبه الذي أحبّته يوماً، كأميرة من أميرات ديزني، من على شرفة قصر أحلامها. لكن شيئاً من هذا لم يتحقّق! أعطته فرصاً كثيرة، واحدةً تِلو أخرى. عقدت عليه آمالاً زرعتها بنفسها في نفسها بأنه سيتغير يوماً. عبثاً حاولت، وها قد حصدت شوكاً، لا قمحاً، من بيادر الآمال الكاذبة! اختارت مصيراً خطّته بيديها وخطَته برِجليها.

تحدّثت إلى صديقتها. أشفقت عليها، غير أن حالها ليس أفضل.

يجمعهما مصيرٌ بائس: لا أحد إلى جانب صديقتها سوى زوجها، ولا أحد إلى جانبها سوى أمها.

الأمور متعاكسة، إلّا أنها متشابهة: هي لا تريد، لا بل تبغض، زوجاً أنجبت منه، وأمها معها. وصديقتها تضع مولودها من زوجٍ تحبّه، لكنَّ أحداً من أهلها ليس معها!

تضطرّنا الحياة جميعاً أن نقدِّم تنازلات لنحصل على ما نريد، تضعنا في خضمّ تجارب تدفعنا إلى اختيار ما نرغبه مقابل أثماناً باهظة قد تكون من كرامتنا، من حياتنا، من مستقبلنا، من أجسادنا وحتى من حريّتنا.

تنظر ضحى إلى صديقتها، تفكِّر: لِمَ لاذت بالفرار مع زوجها تاركةً حياةً بأكملها وراءها؟! من دفعها لفعل هذا: مجتمعها، أهلها، تربيتها، بيئتها؟! أهو خوفها من عائلتها ومحيطها، أم خوفها من "حكي الناس"؟! لا أحد يدري سبب هروبها، لكنَّ المؤكّد أن المجتمع، بتقاليده وأعرافه وعاداته، هو من يتحكّم بمصائرنا: خوفنا من كلام الناس، من نظرة المجتمع إلينا، خوفنا من الدين وتعاليمه، ممّا يحلِّله ويحرِّمه، جَزَعنا من النار والآخرة و"بئس المصير"، كل هذا يتحكَّم بحياتنا ويسيّرنا. هكذا فكَّرت ضحى وهي تحادث رفيقة الدراسة، مفتكرةً أيضاً في حالها ومآلها مع زوجها سيّء الذكر: "لو سمح لي أهلي بالتعرّف عليه أكثر قبل زواجي به، لو سمحوا لي بالخروج معه، لو أعطوني فرصة معرفة شخصيته وأسلوبه ونمط حياته وتفكيره، لَما حدث لي ما حدث؛ لكنت اكتشفت أن ضرب النساء، وهو ما اكتشفته متأخرة، أسلوبٌ ورثه عن والده؛ لو منحني أهلي وقتاً كافياً، من دون الخوف من كلام الناس، من المجتمع وتقاليده والدين وأعرافه، لكنت دخلت حياته

وحياة عائلته أكثر وتعمّقت بهما أكثر قبل الزواج به، لكنت اكتشفت أشياء كثيرة، لكنت أمطت اللثام عن عقده النفسية البغيضة وأهوائه الجنسية المقيتة".

"لكنه الخوف من كلام الناس! من المجتمع والدين والتقاليد! من البيئة المحافظة التي تمنع خروج الفتاة مع الشاب!"، تابعت ضحى تقول في قلبها متأفّفة، "لكن هل ينفعني الآن ذلك الخوف من المجتمع والدين والتقاليد والأعراف، وقد وقعت في ما وقعت؟! لكم نجد في مجتمعنا المكبَّل بالتقاليد والأعراف حالات طلاق، وخيانات مشروعة تلبس لبوس الدين وتتقمَّط عباءة الحلال تحت مسمّى تعدّد الزوجات!"

نعيش في مجتمع يُقال إنه 'مجتمع شرقي عربي محافظ'! يا لهذه الكذبة الكبيرة! هو مجتمع مرادف لكل العقد الموجودة في الحياة: مجتمع ذكوري، يتسلَّط على المرأة باسم الدين والقيم والأعراف والتقاليد ومكارم الأخلاق! مجتمع منافق يمارس العنف والقتل علانيةً، والجنسَ خِفيةً! مجتمع طائفي بغيض، يقدِّس الحلال والحرام: يتظاهر بالحلال نهاراً، ويغطس ليلاً في الحرام حتى أذنيه، من رأسه حتى أخمص قدميه! مجتمع ظالم تمييزي عنصري، لا يؤمن بالمرأة وقدراتها، لا يساويها بالرجل: يعتبرها دونه حقوقاً، وأكثره واجبات! مجتمع بطريركي يتحكّم به رجال يلبسون عباءات الدين وقفاطينه، يعتمرون القلنسوات والعمائم، منصِّبين أنفسهم وكلاء الله وخلفاءه على الأرض! يدينون الناس، يسلِّطون ألسنتهم وأصابعهم عليهم، يصنّفونهم كفرةً وخطأةً وزناة، يقسّمونهم أبناء جنّةٍ وأبناء نار، ويُنزِلون ساطور القوانين الظلامية المجحفة على رأس المرأة، ويعرِّشون سلطان الرجل فوقها! أما خرجت من ضلعه، فكيف تتساوى معه أو تتفوّق عليه؟!

مجتمع متقادم، مترهِّل: منذ القدم حتى يومنا وهو يعيش في بؤرة العِقد، يدور ويدور في حلقة التخلف والجهل المقفلة المطبقة على أنفاسه.

-8-

بعد ستة أشهر على ولادة حسن، عاد الزوج من سفره في إجازة سنوية أنهت إجازتها من الجحيم...

ظنّت ضحى أن رؤية زوجها لابنه ستغيّره حتماً. لكنَّ ردّة فعله لم تكن ردّة فعل أبوية حقيقية، كأيّ أبٍ يرى طفله للمرّة الأولى. حمله، قبّله ثم أعاده إليها!

عندما يرى أبٌ ولده الذي هو قطعة منه، من صلبه، يفرح. يكلّمه، يمازحه، يحمله، يشمّه، ينظر إليه طويلاً، يحدِّق إلى تلك المعجزة الإلهية التي تحبو على الأرض: بذرة، نطفة، منه صارت ولداً يشبهه في تكاوينه.

هذه طبيعة الحياة، وفطرتها في الآباء.

أمّا أمره فمختلف! رؤية مولوده الأول لم تحرّك في داخله شيئاً. قابله ببرودة، بلا مبالاة. عندها تيقّنت ضحى أنه لم، ولن يتغيّر: ماتت مشاعره منذ زمنٍ بعيد. أحاسيسه، لا أحاسيسه بالأحرى، هي نفسها كما عهدتها طوال سنة، وضحى لا تعرف السبب الذي قتلها فيه. لكنها تعلم أمراً وحيداً، نهائياً: ما من أحدٍ يعود من الموت؛ قلبه ميتٌ في صدره، روحه ميتة داخله، ولن يعودا إليه، لن ننبضا بالحياة ثانيةً.

تمنّت لو تمرّ الإجازة سريعاً. راحت تعدّ الأيام والساعات والدقائق والثواني علّها تمضي بسلام. لكنَّ الوقت بدا بطيئاً مثاقلاً، والأمر مختلف هذه المرّة: هنا ضيفٌ صغير، طفلها، شاهدٌ على كل شيء الآن. وهو، رغم صغر سنّه، لن يحتمل رؤية المشاهد الدامية التي عاشتها أمه يوم كان

جنيناً في بطنها. أمّا والده المستذئب فلا يراعي حرمةً، فكيف سيراعي وجود ذاك الملاك الصغير في منزله؟!

تجدّدت المأساة، وراح "الوالد" يضرب الأم أمام طفلها بلا وازعٍ ولا ضمير؛ كأنه يضاعف قصاص زوجته! لكنْ، قصاص علامَ؟! يُعاقَب الإنسان متى أخطأ. لكنْ، أن تُضرَب امرأةٌ وتُذَلّ، ولو خاطئة، فهذا ليس ببطولة أو رجولة بل هو ضربٌ من ضروب الجبن والنذالة. أمّا ضحى فلا أخطأت ولا من يحزنون، وكان زوجها المقيت البغيض يضربها بلا سبب، والآن يعيد الكرّة مضاعفةً، وأمام الطفل، وهذ هو الأدهى! كأنه ينتقم منها لولادته...

وجود الطفل لم يرأف بها، فراح والده يضرب أمه بلا رحمة؛ كأنه يعوّض ما فاتها من ضرب خلال غيابه! الطفل يبكي على وقع صراخ أمّه، ومن يسمّى والده، وهو ليس بوالدٍ بأي حال وعرف، بل وحشٌ ضارٍ، يضاعف ضربها كلّما صرخ أكثر غير مبالٍ ببكائه الشديد وفزعه الأكيد. وضحى الكسيرة، لا ينفطر قلبها على ضربها فحسب، بل ينفطر أكثر على طفلها وهي ترى بأم عينها أنه يشعر بوجعها ويتألم لألمها. كانت تتلقّى الضرب بصمت كي لا يبكي حسن أكثر، لا تُعلي صوتاً ولا تُبدي مقاومةً لأجله: كانت تتعذّب عن نفسها وترثي لسوء حالها من قبل، بات عذابها مضاعفاً: الآن تتعذّب عن نفسها وعن ابنها، راثيةً سوء حاله وطالعه أيضاً.

زادت وحشيته أكثر فأكثر!

لم تعهد ضحى سفّاحها هكذا قبل سفره: استنبط أساليب تعنيف وضرب جديدة، واكتشفت الزوجة السليبة والأم الحزينة صفاتٍ قبيحةً أخرى لدى "فحلها"! علاوةً على ضربها بسبب وبغير سبب، كان يخونها...

لم تُشبِع "حفلات" اغتصابها - حتى أمام طفلها - شرهه الجنسي، بل راح يرتاد بيوت الدعارة! وبدلاً من أن يخجل لأفعاله الشنيعة تلك، لجأ إلى ضربها كأنه بهذا يخفي فعلتَه، ومعها وصمةَ العار ولوثةَ الانحلال عن جبينه: أخطأت ضحى وفاتحته بالموضوع، فأنزل بها عذاب القبور.

وكان المجرم يضع الملامة على ضحى في كل ما يحدث، منزلاً بها القصاص المعهود: حصل حادث سيرٍ لهما في زيارةٍ مع أهلها للعاصمة، وتضرّرت سيارتهم. ضربها ضرباً مبرحاً

لدى عودتهما إلى المنزل، ملقياً اللوم عليها عن الحادث: رجلٌ ذو فكر ذكوري مريض يترجم نفسه بضرب زوجته، وردّة فعلها باتت بعد ولادة ابنها الصمت والرضوخ وإلّا زاد عنفه: السكوت وسيلتها الوحيدة لتخفيف العقاب، وكذلك لتخفيف بكاء ابنها وخوفه. أما اكتشفت أن الحياة هي المدرسة والمدرِّس الحقيقيان، لا مقاعد الدراسة في الثانويات والجامعات.

-9-

انتهت إجازته أخيراً، وصار لزاماً عليه العودة إلى عمله في السعودية. ضحى تنتظر بفارغ الصبر انتهاء عقوبتها الإجبارية للتخلص من جحيمها المؤقتة بوجوده في لبنان.

عزمت ضحى أخيراً على قلب المعادلة وإعادة رسم مصيرها بيدها بعدما اكتشفت أنه لم ولن يتغير، سواء رُزِق بطفلٍ أم لا، سواء عَمِل أم هو عاطل عن العمل، سواء تحسّنت أوضاعه المادية أم بقيت سيئة: أمراضه الجنسية وعِقده النفسية سرطان ينهش روحه، ولا شفاء منه.

يولد الذكور في مجتمعنا مع هذه العقد النفسية الذكورية؛ يتوارثونها بالفطرة، تنتقل في جيناتهم من جيلٍ إلى آخر، يتشرّبونها أطفالاً مع حليب الرضاعة. كأنَّ زرعها في الأبناء إحدى ركائز هذا المجتمع وضمانة استمراره! مجتمعٌ بُنِي على الطائفية، على الجهل والتعصّب الديني، على الذكورية، على التخلّف والانغلاق، على ضيق الأفكار والعقائد. وأسهمت الحرب الأهلية في لبنان في النصف الثاني من القرن الماضي في تفرقة شرائح المجتمع بعضها عن بعض، وشوّهته جينياً ونفسياً: بات المسيحي يكره المسلم، وهذا يكره ذاك. وأصبح الإنسان اللبناني يكره نظيره العربي الذي انغمس في الحرب اللبنانية بشكلٍ أو بآخر، إذ بات يعتبره خطراً يهدّد في وجوده وأمنه واستقراره. وأصبح ولاؤنا للخارج، للدول وللسياسات الغربية والإقليمية، وليس لبلدنا وهويتنا وانتمائنا وحضاراتنا. تراكم كل هذا وأسهم عميقاً في تشويه المجتمع اللبناني: تشوّهات نفسية وخُلقية كامنة في كل مكوّن وشريحة اجتماعية، تنتظر شرارةً توقظها، ومعها جميع الأمراض التي ورثناها عن تلك الحرب اللعينة. والسياسيون، وهذا هو الأدهى، يعتمدون على هذه الشرارة لتوكيد سلطتهم وضمان مصالحهم السياسية والمالية. تشوّهات بنيوية عميقة، راسخة، ما من دواءٍ يشفيها: التعصّب الديني والكراهية الطائفية والتباغض المذهبي إفرازات تتحكّم بحياتنا اليومية في أبسط أشكالها، فأنّى

لنا، والحالة تلك، احترام الآخر واحترام حقّ الاختلاف الفكري مع تصدّعنا الاجتماعي وتفكّكنا الداخلي؟! وأنّى لنا أن نحترم المرأة ونعاملها كإنسان، وكمواطن، وكشريك كامل في بناء الوطن والمجتمع والإنسان، والأمراض تعشِّش في نفوسنا، وذكوريتنا نستمدّها من الدين والشرع، من التقاليد والأعراف والأفكار البائدة.

ضحى ابنة هذا المجتمع المشوَّه، المريض، المتهالك وضحيته. لكنها قرّرت أن تغيِّر واقعها. لن تمنح زوجها المستفحل فرصةً أخرى، مع وجود طفلها بخاصة. فقدت الأمل كاملاً، انعدم رجاؤه بإمكانية تغيّره، فصمّمت على قلب الطاولة على رأسه: ستخوض اللعبة بطريقة معاكسة علّها تربح معركة تعرف مسبقاً أن المجتمع سيقف ضدّها، في صفّه، إلى جانبه لأن انتصاره يعني انتصار هذا المجتمع البائس.

أملها بأن يتغيّر خاب نهائياً، وملؤها العزم الآن أن تخوض حرباً ضروساً، تعرف أنها غير متكافئة، لتلقّنه درساً في احترام المرأة وحسن معاملتها. أفصحت لوالدتها عن كل شيء: من الصفعة الأولى حتى الأخيرة، عذابها القاتل على يديه المجرمتين، معاناتها الأليمة التي لا تُحتمل. باحت لها أكثر: تعنيفها، اغتصابها، تعذيبها. مرضه النفسي وهوسه الجنسي. مشاهدته الأفلام الإباحية وتطبيقها عليها. ارتياده بيوت الدعارة، وضربها حين واجهته بهذا. أخبرت أمها رغم مرضها الشديد، فهي معتلّة أيضاً وتريد الخلاص من شقائها وتحتاج إلى دعم عائلتها: يعوزها قلبٌ محبٌّ ويدٌ حنونة، ومن أكثر من صدر الأم سنداً وحناناً وسِعةً وملجأً شافياً لأولادها.

بكت ضحى وهي تخبر والدتها، وأبكتها. تلظّى خدُّها بدموعها وتوجَّع قلبها لغصّات صدرها. ما أرادت أن تتسبّب لأمّها بألم، لكنها لم تعد تحتمل وجعها ولم تُرِدْ خوض حربها وحيدةً. تريد أن يشاركها أحدٌ سرَّها الدفين، فصمتُها يكاد يخنقها وها قد أصبح الآن صراخاً يُنذر بثورة على الظلم ويبشِّر ببداية جديدة.

الصمت يوجع الإنسان في أحيان كثيرة بخاصةٍ ذاك الحامل في ثناياه عذاباً وألماً، بل يكاد يصبح هو العذاب نفسه. باحت بكل شيء كي لا يقتلها صمتها، وكي لا يؤذي ابنها. بيد أنها ما توقّعت ردّة فعل والدتها التي فوجئت، بل صُعِقت بما سمعت. ألقت الأم اللوم على نفسها لكونها لا تعرف العذاب الذي تعيشه فلذة كبدها.

هذه طبيعة الحياة وسنّتها: الأم منبع الحنان والحب والأمل والقوة لأبنائها.

هذه قوانين الطبيعة وشرعة الإنسانية: الأم محور الكون لأنها ينبوع الحياة.

نعم الأم محور الوجود، ومن هنا صراع ضحى: أمومتها مهدَّدة، الخطر مُحدِقٌ بها وبطفلها.

هي تدافع الآن، لا عن نفسها فقط، بل عن طفلها لدرء خطر أبيه الذي جاء يلتهمه هو أيضاً.

كقطّة شرسة ستدافع عنه حتى الرمق الأخير: حين تلد القطّة صغارها، تروح تتنقّل بهم كي تخفيهم عن والدهم القطّ مخافة أن يلتهمهم لأن الذكور من بينهم سينافسونه مستقبلاً: هذه غريزة القوة والبقاء.

ضحى قطّة، بل لبوءة متوحّشة قرّرت خوض معركتها الأخيرة في وجه من يهدّد ابنها ومن يهدّد أمومتها.

وانضمّت أمومة والدتها إلى أمومتها: ستخوض الأم الحرب مع ابنتها ضدّ زوجها "المستأسد" لأجل خلاصها، لوقف آلامها وعذاباتها، لردّ التعنيف والإهانات عنها؛ ستقدّم لها العضد والحماية اللذين فاتاها خلال السنتين المنصرمتين حيث لاذت ابنتها بالصمت وكانت وحيدةً في وجه طغيان زوجها.

فتحت ضحى الهاتف وأخبرت والدها أيضاً. قصّت له حكاية اضطهادها وحياتها الأليمة، مفصَّلةً. عارض الوالد طلاقها بشدّة. صوت ألمها وحشرجة روحها لم يصلاه عبر الأثير. تساكنها أوجاعها وذكرياتها البغيضة هنا. وهو هناك، في بلدٍ ثانٍ، يسكن معه الجلّاد الذي بدأ يلعب دور الضحية!

ما من مَهربٍ أمامه، أو مَنفذ، سوى لبس ثوب النعجة وارتداء عباءة الندم! والدموع وسيلته للهروب من العقاب.

خاف والد ضحى من الفضيحة، فقرّر أن يصالحها مع زوجها.

المجتمع الشرقي تهمّه المظاهر وتأسره الألقاب، وهو مجتمع محافظ يرى في الطلاق عاراً وفضيحة وينظر إلى المرأة المطلَّقة نظرةً دونية. لذا لن يقوى الوالد على مواجهة المجتمع بابنة

تحمل وصمة "مطلَّقة"! وخشي أن تجلب لنفسها ولعائلتها العار والمهانة.

قرّر إعادة وصل ما انقطع بين ابنته وزوجها لدرء وصمة عار قد تنطبع على جبينها طوال حياتها! كأن على الضحية في هذا المجتمع القمعي حمل عواقب جرمٍ لم ترتكبه، كأن على الميت في هذا المجتمع المترهِّل حمل كفنه والذهاب إلى قبره على قدميه.

لكنَّ ضحى لم يعدْ يهمّها، لا المجتمع ولا كلام الناس. فما من أحدٍ يحمل الوجع عنها، وما من أحدٍ يشاركها الضرب الذي تتلقّاه والمهانة التي تُكال لها: الجمرة تحرق مكانها فقط كما يقول المثل الشعبي. لذا أصبحت خارج تلك الدائرة المغلقة المسمّاة: مجتمع.

أمِلت ضحى أن يرضخ والدها لمطلبها عاجلاً أم آجلاً، ستصل إلى مرادها بمساعدة والدتها الشاهدة على دموعها عن قرب.

- أتذكرين حين ذهبنا إلى المستشفى الحكومي كي ألد؟

- نعم، بالطبع أذكر. كنت إلى جانبك طوال الوقت.

- ألم تطلبا منّي، أنت ووالدي، أن ألد الطفل في مستشفى آخر؟

- نعم أذكر هذا.

- حسناً، هو من منعني وعارض ذهابي إلى مستشفى خاص.

- لماذا؟!

- لا أحد يعلم، مثل أسئلة كثيرة لا أجد إجاباتٍ لها! لا أملك تفسيراً لتصرفاته الغامضة والسيئة. وأتذكرين حين سألتِني يوماً لِمَ أضع مساحيق تجميل بكثرة ولو باقية في المنزل؟

- نعم.

- سأجيبك الآن: كي أخفي الكدمات عن وجهي و آثار الضرب في كافة أنحاء جسدي.

تبكي الأم حين تسمع كلام ابنتها، فما أقسى أن يُصاب أبناؤنا بكَلَم. تنهار من الداخل، لكنها سرعان ما تلملم نفسها وتُظهر قوتها كي تكون سنداً قويا لابنتها.

- وهل تعلمين لِمَ لم أزركِ كثيراً رغم أن بيتنا ملاصقٌ لبيتكم؟ لأنه كان يمنعني.

- هل أنا عاهرة يا أمي؟

- لا، لا سمح الله، لماذا تقولين هذا؟!

- لأنه كان ينعتني بهذه الصفة حين يشاهد الأفلام الإباحية، وحين يعود من بيوت الدعارة التي كان يرتادها. كان يعود مباشرة لضربي وإهانتي بهذه الألفاظ النابية.

تلتقط والدتها الهاتف، ومن دون تردّد أو خوف تطلب من زوجها قبول طلاق ضحى من ذاك الرجل السافل، مهدِّدة أنها ستترك المنزل إذا لم يتم الانفصال حالاً. يستجيب الوالد رغم الخوف من الفضيحة المنتظرة؛ قلبه يحدّثه بهذا.

- لا تهمّني الفضيحة قطّ! فلذة كبدي كانت تتعذّب سرّاً ولم تنبس ببنت شفة حفاظاً على حرمة بيتها. لكن، كفى، ليس بعد اليوم! ابنتي تعيش مع مجنون، مهووس، مريض عقلي ولم نكن نعلم حالتها المزرية. هل ترضى بأن تعيش ابنتك العذاب والضرب والألم، فقط كي نهرب من كلام الناس وحكي المجتمع؟! كانت ابنتك تعيش في الجحيم، فهل سترميها في النار ثانيةً مخافة أن تلتهمها ألسنة الناس؟! ما أدراك ماذا سيفعل بها حين يعود؟! لقد قال لك إنه نادم على كل شيء، مبرّراً أفعاله الشنيعة وإجرامه الوحشي بأنه سريع الغضب والانفعال وأنه لا يستطيع السيطرة على نفسه، فهل ستُبقي ابنتك في منزل رجل مضطرب نفسياً ومختلّ عقلياً؟! وما أدراك إن هو نادمٌ حقاً؟! وماذا لو عاد لأذيتها ولتصرفاته الوحشية معها؟! انها ابنتي ولن أرميها فريسةً بين أظفار هذا المجرم ومخالبه فيلتهمها متى شاء... سيتم الطلاق، وليذهب المجتمع إلى الجحيم! فليجرّب جهنّم التي عاشتها ابنتي...

-10-

خوفها كبيرٌ جداً الآن، وقلقها يزداد من أن تخسر ابنها وحضانته: تعلم أن الشرع سيمنحه الوصاية على الطفل حين يبلغ السنتين من العمر. وتعلم أيضاً أنه ينتمي إلى حزب سياسي له نفوذٌ متعاظم في البلد، وسيستخدم وساطته الحزبية لينتصر عليها منزلاً بها العقاب الأشدّ، خسارة طفلها. وتعلم جيداً أننا في بلد يحكمه النفوذ وتسيطر القوة السياسية على أوجه الحياة كافةً فيه، ومن يملك وساطة عند سياسي يتربّع أميراً معرَّشاً حيث يعيش. وتعلم أن المتعلّم أو المثقف في هذا البلد عاجزٌ دوماً عن سدّ قوته اليومي وإطعام عائلته وتأمين حياة حرّة كريمة لأولاده، هذا إن وجد عملاً في الأساس أو سمح له أصحاب الوساطات بالعمل.

هي تدرك هذا الواقع الأليم: بلد تحكمه شريعة الغاب وسنّة الأقوياء: "إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب"، مبدأ يسود مجتمعنا بكافة مناطقه وشرائحه.

أيُّ شرعٍ هذا؟! يسلب طفلاً رضيعاً من أحضان أمه، يسلخ عنه حنان صدرها ويرميه، يحرم أماً أمومتَها وطفلاً طفولتَه!

وأيُّ قانونٍ هذا؟! يقف في صفّ الرجل فقط لأنه ذكر!

أيُّ بلدٍ هذا؟! لا يحترم كيان المرأة، كينونتها الإنسانية، وهي نصف المجتمع بل المجتمع بأكمله!

أيُّ وطنٍ هذا، والقانون فيه والدستور معطَّلان أمام سلطة رجال الدين ورجال السياسة المتحالفين معاً ضد العدل؟!

وهل يكن رجل دينٍ حقيقياً من يشرّعْ تشريعات ظالمة لا تمت للرحمة والرأفة والإنسانية بصلة.

أفكارها هذه تؤرقها، ساكبةً في نفسها هموماً ومخاوف لا تهدأ وتزيد جسدها ألماً فوق ألم. لكنْ ما من سبيلٍ آخر: ستناضل، ستربح الحرب التي قرّرت خوضها، ستحتفظ بابنها، وسيكبر وسيكون سندها في الحياة.

اتُّخِذ القرار النهائي وبدأت إجراءات الطلاق. بدايةً، وخلال الأشهر الستة من المفاوضات، لم يطلب رؤية الولد! أبٌ لا يرى ابنه لمدة نصف عام، هل يكون والداً حقاً؟! هل يعلم ماذا تعني كلمة "أب"؟! هل يشعر بأبوّة حقيقية لطفلٍ أتى به إلى الحياة، بأبوّة تجاه بذرة منه نمت داخل أحشاء امرأة كانت يوماً حبيبة، أميرة على شرفة؛ نطفة نمت وصارت ابناً له، من صميمه، من لحمه ودمه؟

مرَّ الشهر السادس والزوج لم يطلب رؤية ولده، إلى أن حلّت الفاجعة الكبرى: طلب رؤيته ثم قام باختطافه!

ظنّت ضحى بدايةً أن أنه اشتاق لرؤية طفله، أن شعور الأبوّة قد تحرّك فيه. وكم أخطأت الظن! كانت أشهرٌ ستّة من التخطيط والتنسيق مع شقيقه لتنفيذ مؤامرته الخبيثة. لم يكتفِ بضرب الأم طوال السنوات المنصرمة، بل ضربها في مقتل: في طفلها.

-11-

ها ضحى طريحة الأرض تهذي! روحها متصدِّعة، لقد دمّرها زوجها شرَّ تدمير.

لم تعدْ تقوى على الوقوف على رِجليها، وانهارت كطفلةٍ سرقوا لعبتها. تيتّمت رغم وجود أمها وأبوها، سرقوا منها طفلها وطفولتها.

تمزّق قلبها، وروحها تحتضر داخلها كفرسٍ جريحة انقطع أمل شفائها ولا تنقذها من آلامها سوى رصاصة رحمة.

ضائعة، تائهة كعجوزٍ تسعينية لم تعد تعرف طريق العودة إلى بيتها.

أُصيبت في مقتل، في قلبها وروحها، في أعزّ ما لديها، في طفلها وأمومتها؛ كغزالةٍ أرداها صيادٌ وصغارها عبثاً ينتظرون عودتها لتُرضعهم.

عندما تيقّنت نهايةً من اختطاف ابنها ارتمت أرضاً صارخةً، مولولةً، تناديه.

أمٌّ فقدت طفلها، ولا ملجأ لها غير أمّها فوحدها الأم تعرف فداحة خسران فلذات الأكباد:

"أمّاه، يا أماه!

هل تشعرين بسوء حالي؟! أنت أمٌّ مثلي، هل تشعرين بوجعي يا أمّاه؟!

لقد أخذوه مني، لقد سرقوا ابني من حضني!

كيف سيأكل الآن؟! من سيطعمه؟! من سيحضنه ويدفئه إن أصابه البرد؟

أمّاه، لقد سلخوا روحي عن جسمي! ربّاه! لا أستطيع التنفّس، أنا أموت.

هل يبكي، هل يتألم، هل هو جائع؟!

ردّوا إليَّ ابني! أرجوك يا أمي، إنني أتألم.

استعطفيهم، افعلي أي شيء، ليعيدوا لي ابني.

لم يكن هذا أملي ورجائي، لم يكن هذا الطريق الذي أردت أن أسلكه ولا النهاية التي رجوتُها. لكنني كنت أعيش من أجل غدٍ لا خوف فيه، من أجل غدٍ فيه ابني فقط: أجوع من أجل أن يشبع، أتألم بصمت كي لا يبكي، أتلقّى المهانة ولا أردّ كي يظل مبتسماً. لم تكن لحياتي قيمة، وأملي الوحيد ألّا تقسو عليَّ السماء أكثر. لكنها تسحقني الآن بفقدي طفلي أكثر ممّا سحقتني بفقد كرامتي وحياتي! لِمَ السماء قاسية إلى هذا الحدّ يا أمي؟!

كنت أعيش من أجل أملٍ يتيم، وهو أن يكبر طفلي أمام عينيّ. لكنَّ الطمأنينة ستأفل الآن من قلبه الصغير، والبسمة ستنكسر على شفتيه. ستتمزَّق حياته كغيوم تشرين، ستغدو رماديةً كأوديةٍ يلفّها الضباب، وسيضيع ويتيه كشمسٍ أشرقت لكنها لم تجد أفقها. أمي، أمّاه، ما أصعبها تلك اللحظة التي تُسلَخ فيها الروح عن الجسد! هكذا روحي بعدما سُلِخ ابني عنّي".

قالت ضحى هذا، وما هي إلّا لحظات حتى سقطت أرضاً مغميّاً عليها. رجت أمها متوسِّلةً منها المساعدة، أودعت رغبة روحها عندها، وغابت عن وعيها كأنها دخلت في غيبوبة، علّها تجد ابنها هناك، في لاوعيها، في عالمٍ بعيدٍ عن هذا العالم؛ علّها تجد روحها التي سلخوها عن جسدها بسلخ ابنها عن صدرها؛ علّها تلتقي هناك أرواح من خطفوا طفلها، علّهم يكونون هناك أكثر رحمة وشفقة، علّها تفاوضهم وتعطيهم كل ما عندها لتستعيد الأغلى؛ عساها هناك، في لاوعيها، ترى صورة "حسن"، تضمّه إلى صدرها، تشمّه، تقبّله، تداعبه، تلاعبه، تغنّي له أغنية "يلّا ينام، يلّا ينام". كان حسن يحب هذه الأغنية، وضحى تغنّيها له بصوتٍ عذبٍ وخفيض، وهي تلامس وجهه الملائكي مثلما تداعب فراشةٌ النور.

لن ينام "حسن" هذه الليلة في حضن والدته، وروحها لن تنام: ستبقى مستيقظةً لحين عودته يوماً ما.

-12-

سنة كاملة، بأيامها الأليمة وشهورها وفصولها المتعاقبة بلا أمل كحلقة مفرغة، سنة من المفاوضات العقيمة، وضحى لا تعرف وضعها: مطلَّقة أَم لا، أُمٌّ أَم لا! سنة بين أروقة الغرف والمكاتب، سنة في المحاكم، سنة على أبواب الانتظار، وضحى مترجِّحة بين النعم واللا: بين "نعم"، قَبِلَ زوجها أن يطلِّقها، وبين "لا"، يرفض إعطاءها الطلاق - لم يكفِه العذاب الذي ألحقه بها سابقاً، لم يكفِه الضربُ الذي كاله لها، لم يكفِه أسرُها داخل ذاك السجن الكبير، في بيته، بين جدران تلك الجحيم. بساديّة قرّر أن يضاعف ألمها آلافاً مؤلَّفة، سيعذِّبها، سيطيل فترة سجنها، سيمنحها حرية بطعم العلقم، وسيُعمل السكّين أكثر في جسدها وروحها، في سلخها عن ابنها: منعها من رؤية طفلها، رأته مرّة يتيمة فقط؛ كأنه ينتقم منها عن الأشهر الستة التي لم يرَ خلالها ابنه.

وصل ملف الطلاق إلى المحاكم الشرعية، بيد أنه ماطل لأكثر من سنة بين نعم لطلاقها وفكّ أسرها ولا: يريد أن يطيل عذابها قدرما يستطيع، متلاعباً بألمها، بأعصابها، بمشاعرها لحين قرّرت مواجهته وجهاً لوجه.

هي المواجهة الأخيرة بين القاتل والضحية: كل شيء جاهز، الأسلحة، ساحة المعركة، مضامينها وأبعادها، أساليب الدفاع والهجوم... لكن ضحى لم تستخدم أسلحتها الهجومية أو الدفاعية قطّ، وبقيت صامتة. أرادت أن تعرف مطالبه مقابل منحها الحرية. كل ما ساومت لأجله وفاوضت كان الطفل: لا تريد من "زوجها" سوى فلذة كبدها، لكنها ليست بمكره ودهائه وخبثه وحنكته في صنع الألم وتأجيج الصراع وإدارته وتحقيق انتصارات... كاذبة.

- ماذا تريد؟

- كل شيء، حتى روحك...

- هل تقصد قتلي، أم تريد طفلي - روحي - الذي أعيش لأجله.

- الاثنين! سأفعل المستحيل لأحتفظ بالطفل؛ بهذا أكون قد سلبتك روحك.

- ألم تكتفِ بما فعلته بي طوال هذه السنين؟! لِمَ أنت قاسٍ إلى هذا الحد؟! أنت تعلم جيداً أنني لا أستطيع العيش بدون حسن. أرجوك أن ترأف بحالتي قليلاً، فأنا أم.

- أنتِ من طلب الطلاق وبدأ الحرب.

- ألا تعلم سبب طلبي الطلاق؟! لأنتهي من العذاب، من اضطهادك، من الضرب والإهانة. حياتي معك كانت جحيماً، أنسيتَ كيف كنت تجلدني وكيف كنت تجرّني على أرض المنزل وكيف كنت تغتصبني؟!

- أنت حلالي وأستطيع ممارسة الجنس معك متى أردت.

- حلالك، وليس جاريتك! كنت تمارس الجنس معي مرغمة، وتشاهد أفلاماً إباحية وتطبّقها عليّ! هل نسيت كيف ضربتني حين اكتشفتُ وجودها في المنزل؟! هل نسيت كيف كدت تقتلني حين علمتُ أنك ترتاد بيوت الدعارة...

- أنت كاذبة، كل ما تقولينه كذبٌ بكذب.

- لِمَ، قلْ لي لِمَ أنت هكذا؟! كنتُ لك كل شيء، وكم وددتُ لو أبني عائلة جميلة معك. لِمَ أوصلتنا إلى هذه الحالة، لِمَ تتصرف على هذا النحو؟! لو كنت في البيت، لأشبعتني ضرباً لمجرد السؤال...

- يبدو أنك اشتقتِ إلى طعم الألم.

- أنت مريض نفسي، وتحتاج إلى علاج سريع. تصرّفاتك تشي بأنك تعاني من اختلال عقلي ونفسي. قلْ ماذا تريد لننهي الأمر، لم أعدْ أحتمل عذاباً أكثر.

- تتنازلين عن مؤخَّرك وتدفعين لي مبلغاً مالياً نقداً مقابل حريتك.

- حسناً، أتنازل عن مؤخَّري. لكن هل أنت متضرِّر من الطلاق، وتريد نفقة تعيل بها نفسك، لتطلب مالاً؟! هل سيدينك المجتمع، وهل سيؤشِّر عليك الناس وينادونك "طالق"، أم أنا؟! لكنْ حسناً، ستحصل على ما تريد لكن شرط احتفاظي بحسن؛ أريد حق الوصاية عليه.

- خذيه من المحكمة إذا استطعتِ...

- أرجوك...

كانت هذه كلماته الأخيرة. قالها ومضى. قَبِلَ إعطاءها الطلاق مقابل المال، قَبِلَ منحها الحرية مقابل المؤخَّر الذي هو حقّها الذي يكفله الشرع والقانون.

في مجتمعنا يطلب الأهل مقدَّماً ومؤخَّراً، وهما ضمانة لابنتهم في حال الطلاق. لكنه سلبها هذين الحق والضمانة، وسيعيدها إلى بيت أهلها بلقب "مطلّقة" وهو ورقة إدانة بنظر المجتمع، وعلاوةً عل هذا سلبها طفلها!

مجتمعنا يرفض الزواج المدني الذي يحمي حق المرأة ويضمن استقرارها النفسي والمادي، ويعتبره كفراً وزنا كونه لا يتم تحت إشراف رجل دين أو من خلاله. لكنه يوافق على زواج "ديني" يسلب المرأة حقوقها دون الأخذ بعين الاعتبار مكانتها ككائن مساوٍ للرجل، ولا استقرارها النفسي، ولا كونها أُمّاً لها حقوق طبيعية من دون مِنّة أحد، ودون الأخذ في الاعتبار مصير الأطفال وحالتهم النفسية! يرفض المجتمع زواجاً مدنياً تحت سقف القانون، تشريعُه وأحكامُه مأخوذة من القانون المدني، بحجّة الحلال والحرام، فقط لكونه لا يتمّ عبر أصحاب العمائم والقلادات الذهبية، ولأنه يقفز فوق جيوبهم ومصالحهم الخاصة. يكفِّرون كل من يتزوج زواجاً مدنياً ويصفونه بالزاني والخارج عن الطاعة الإلهية!

للزواج ركنان أساسيان، القبول والإشهار، أي قبول الطرفين المتمِّمين لعقد الزواج مختارَيْن، دون رفض أيٍّ منهما أو موافقته تحت التهديد؛ أي قبول الطرفين بملء إرادتيهما وبكل قواهما العقلية والنفسية إتمام هذا العقد وإشهاره علانية أمام الناس والملأ. عقد الزواج يتمّ بين طرفين متعاقدين حرَّيْن، وبندا القبول والإشهار يُعترف بهما مدنياً ودينياً ويُعمل على أساسهما. لكنَّ مجتمعنا يرفض زواجاً يتمّ تحت سقف القانون المدني لغايةٍ في نفس يعقوب.

قال لها خذي طفلك من المحكمة لأنه يعلم عِلمَ اليقين أن المحكمة الدينية لن تعطيها ابنها، إذ قالوا لها لاحقاً في المحكمة خلال إحدى زيارات التسوية إنه لا يحقّ لامرأة تطلب هي الطلاق أن تحتفظ بابنها! أي إن طلبها الطلاق إسقاطٌ لحقّها في الأمومة وتخلٍّ من قِبَلها وبملء إرادتها عن ولدها، فقط لأنها طلبت طلاقاً خلعياً أي لا رجعة عنه.

لم تكن ضحى تعلم كل تلك "الزواريب" الضيّقة في القضايا الشرعية والتشريعات الدينية. لو علمت بأنهم سيأخذون منها ابنها، روحها، لاحتملت عذاب العالم بأسره لتبقى معه.

إذن في مجتمعنا لا يحقّ لامرأة أن تحتفظ بولدها إن طلبت الطلاق خلاصاً من عذابها. هذا يعني أن عليها أن تتلقّى الضرب والتعنيف والمهانة والعذاب والألم الجسدي والنفسي فقط لتحافظ على أولادها! بالله عليكم أيُّ شرعٍ وأيُّ دينٍ وأيُّ مجتمعٍ وأيُّ إلهٍ حتى يرضى بهذا الكم من الظلم والقهر بحقّ الإنسان والأمومة؟! نتساءل دوماً لماذا نشاهد العنف والقتل والدم إلى ازدياد مطَّرِد في مجتمعاتنا. نتساءل دوماً لماذا مجتمعنا في تردٍّ أخلاقي وإنساني وديني. هذا ببساطة لأننا فقدنا قيمنا وأحاسيسنا ومشاعرنا، لأننا لم نحافظ على إنسانية منحها لنا إلهٌ عظيم يرمز بكل أقانيمه إلى الرحمة والمحبة والعطاء. نقتل الله ألف مرة في اليوم: في كل مرّةٍ نقتل إنسانا صارخين "الله أكبر" نكنْ قد قتلنا الله لأننا قتلنا أحد خلقه. نشتمه في النهار ألف مرة حين يشتم بعضُنا البعض. نحرّف كلامه ووصاياه ونغرسها كإنشاء في عقولنا! نبشّر بالتعصّب والطائفية بدلاً من المسامحة والتعايش. نكرّس الاختلاف الديني والاجتماعي بدلاً من التآخي الوطني والإنساني، ولا نعتبر أن لكل إنسانٍ الحرية المطلقة في المعتقد والدين والثقافة. وفي النهاية نقتل الأمومة والأم باسم التشريع الديني، ثم نتساءل في مجالسنا لماذا أصبحنا منغمسين في الدم!

الأم هي من يحرّك هذه الكرة الأرضية، هي من تجلب الحياة في هذه المجرّة الكونية. في رحمها تحمل الحياة، وتَلِدها بألم مخاضٍ لا يُحتمل، فنجيء نحن بكامل جبروتنا وتصلُّبنا وحقدنا لنسلب منها الحياة. تلك التي تهز السرير بيمينها تستطيع أن تهز العالم بيسارها، فنأتي نحن بتشريعاتنا الحمقاء ونقطع لها يدَيها!

تبّاً لكل يدٍ تمتدّ إلى أمٍّ بأيّة حجّة وذريعة!

-13-

تتواطأ الدنيا كلُّها معه ضدّها! حتى القدر شاء أن يقف في صفّه...

بمكره ودهائه وإجرامه سخّر الجميع من حوله لمصلحته. ما العمل إن اختارت التشريعات الوقوف في صفّ الذكورية ضدّ الأمومة والحق! حتى المحكمة لم تأخذ في الاعتبار التقرير الطبي الشرعي الذي قدّمته بذريعة تقادمه ومرور الزمن عليه. حتى الوقت ليس لصالحها، يمرّ وابنها بعيدٌ عنها. يمرّ، وهي تخسر قوتها وإرادتها وشجاعتها. يتواطأ "السفّاح" مع الزمن محبطاً عزيمتها. طلبَها إلى "بيت الطاعة" الذي نصحتها به المحكمة، لكنها لم تذعن ورفضت. إذ ماذا يعني بيت الطاعة، وبماذا ستفيدها الطاعة الآن؟! ألم تكن مطيعة بل مذعنة لـ "بعلها" طوال سنتين، فما حصَّلت غير الضرب والإهانة والعذاب؟! أطاعته ما يكفي، ألم يقلْ لها إنها عبدتُه؟! نعم، كانت عبداً صاغراً مُطيعاً: كانت المرأة المطيعة، الضحية المطيعة. والسوط في يده أطاعه أيضاً ليجلدها تحت إشرافه...

حتى التشريعات كانت مطيعةً له، فبِمَ سيخدمها بيت الطاعة إن عادت إليه؟! هل تعود لتقول له: أمرك مولاي، افعل بي ما تشاء؟! لقد فعل الكثير، وأطاعته أكثر، ولم يعد شيءٌ يُطاع أو يُطاق. لا الحياة معه تُطاق، ولا الإهانات ولا العذاب، فإلى متى ستصبر؟!

قبل دخول قاعة المحكمة وسماع الحكم، سعت أمها إلى خفض المبلغ الذي طلبه علّها تستخدم المال ورقةً لمصلحة ابنتها واستعادة طفلها. راح يصرخ عالياً واتّهم زوجته علانيةً بسرقته وسرقة حقّه! أمّا المحكمة فلم تكثرت، وقفت ثانيةً مع الجلّاد الذي انقلبت مناورته وتمثيليته على ضحى، ومطلب أمها لم يصب أيضاً في مصلحتها.

يا لسخرية القدر وظلمه حين يتواطأ مع الظالم ضدّ المظلوم!

نحن لا نعرف ما يخبّئه لنا القدر: يتواطأ معنا تارةً، وعلينا تارةً أخرى! يمنحنا كل شيء، ليسلبه ثانيةً! يعطينا السعادة أحياناً، ولا ندري متى يستعيدها منّا في حركة عبثية انقلابية! يَهِبنا أبناءنا، ثم يأخذهم منّا! يمنحنا المال ويغنينا، ثم يسرق كلَّ ما في جيوبنا كأنه حقٌّ له! كلُّنا على موعدٍ مع القدر، لكننا لا نعلم متى وكيف وأين وإلام يقود اللقاء...

اكتشفت ضحى أخيراً أن المدعو "زوجها" رشا الشيخ ليُصدِر الحكم الذي يشتهيه، ناصّاً بماله ورقة الطلاق! أعطته المال ظنّاً منها أنه سيكون مقابل حريتها، فاستخدمه لرشوة الشيخ...

بعد أن انتهت المحكمة ونطقت الحكم لصالحه، ذهب الشيخ مع ضحى مقنعاً إيّاها أنه سيُسمَح لها برؤية الطفل. وحين وصلت إلى المنزل، أبقاها في السيارة مشيراً عليها أن تنتظر ليرى إن كان زوجها سيسمح بذلك. غاب الشيخ ليعود بعد دقائق قليلة، رأته ضحى من بعيد يضع النقود في جيبه. هنا أيقنت أن كل شيء انقلب عليها؛ لا شرع يحميها، ولا قانونن ولا من يحزنون. حتى رجال الشرع والقانون، الذين أقسموا يوماً على تنفيذ القانون وإعلاء الحق وإرساء ميزان العدل، لم يقفوا في صفّها: ضعفوا أمام المال، فانقلب ميزان العدل لصالح الطاغية الظالم. فما أصعب الحياة في عين المظلوم، وما أمرَّها جرعة السم التي يشربها رشفةً رشفة خلال عذابه! كم يكون الجلاد قاسياً حين يضع إنسانيته جانباً ويلتقط سوطه ليُنجز عمله! وما أصعب ضرباته على جسد المظلوم، فيتمزّق لحمه، لا من ضربات السوط بل من تحجُّر قلبه. بعد كل رشقة جلد، يغيّر أداته ليعذِّب الضحية أكثر! ومع كل أداة جديدة يتغيّر طعمُ الألم، ممتزجاً بالدم النازف الذي، يا للمفارقة، يغدو ماءً تروي الضحية! يصير الألم والمتألم صديقين، يتعلَّق أحدهما بالآخر، ينصهران تحت ضربات التعذيب!

يمرّ الوقت، وضحى في "غيبوبة الوعي"، في "غيبوبة الضمير"، مخدَّرة من طعم الألم والظلم اللاحقين بها. صاحية هي، لكنها غائبة ضائعة تائهة في دوامة، يلفّها إعصارُ الألم، ولا تستطيع الخروج. يسري في عروقها مخدِّر يمتزج ودمها، وتلفّ سحبُ المجهول حاضرها وغدها كسهلٍ واسع طواه الضباب الكثيف، وهي لا تعرف طريق المضيّ إلى أمام أو العودة. تنتظر انبلاجَ الضحى، شعاعَ أملٍ يدلّها على الطريق، لكنَّ الشمس التحفت الدجى ونورها توشَّح غيوماً سوداء بدت وكأنها رداءٌ قاتم تلقيه السماء على كتفَيها.

تستوطن جدران غرفتها هاربةً من واقعها، متسلِّحة بذكرياتها مع حسن؛ تكرُّ سبحة تلك الذكريات الجميلة الوادعة أمام عينيها كشريط مصوَّر، وما إن ينتهي حتى تعيد تشغيله من جديد. هنا صورة ذكرى وهي تحتضن طفلها، وهناك أخرى تسابقها كفراشة. هنا ذكرى تسقط في أحضانها فتلتقطها وتداعبها كأنها تداعب ابنها، تغنّي له، تكلّمه، تُطعمه، تغيّر له ملابسه. ثم تختفي الذكريات من أمامها فجأةً، تتبخَّر كالبخار، تتصاعد متسلّقةً الجدران إلى سقف الغرفة، ترتطم بذكرى أخرى، فتنهلّ كالأمطار؛ رذاذ مطر يحمله الريح، تعدو خلف حُبَيباته، لتلتقط منه ذرّات ذكريات أُخَر.

تسمع قرعَ الجرس. تهرع نحو الباب كأنها تنتظر زائراً يُعيد إليها ابنها أو يأتيها بخبرٍ عنه، لتجد ابنة الجيران؛ أتت هذه حاملةً إليها صوراً بعثها من كان يوماً حبيباً وزوجاً، صور زفافها، وأخرى لها مع ابنها ليزيد عذابها بساديةٍ لا مثيل لها، وثالثةً ممزَّقة تظهر وحدها فيها: صور زفافها ممزَّقة، وتجلس فيها وحيدةً بثوب العرس كأنَّ العريس لم يحضر! صور جمعتها مع ابنها يوماً، لكنها وحيدةٌ فيها الآن؛ ما من طفلٍ يجلس في أحضانها!

"أين اختفى حسن؟" تصرخ بأعلى صوتها، "حسن كان في الصورة، أين هو الآن؟ في حضن من يجلس؟ أين ابني؟ أريد ابني... وتعود ضحى إلى غيبوبتها، تلجأ إليها كمهربٍ من واقعها.

يظن "الفحل الشرقي" أنه عندما يمزّق الصورة، سيسلبها ذكرياتها! لا يعلم أن الصورة تنطبع في الذاكرة، وما من شيءٍ يمحوها. لا يعلم أن الصورة لا تُؤخَذ على الورق، ولا بالكاميرا ولا بالهاتف المحمول: الصورة تُلتقَط في الصميم، في الفكر والمخيّلة، ويحتضنها القلب كإطار.

مجرمٌ هو بكل معنى الكلمة، سفّاح يتمتّع بإراقة الدم والنظر إليها. حتى في غيابه، بابتعاده، يعاقبها ويضربها! يغيّر الأداة ليجلدها هذه المرّة بذكرياتها وصورها، وشتّان شتّان بين جلد الجسم وجلد الروح!

حالة ضحى النفسية لم تعدْ تُحتمَل، تدهورت كصحتها وحالتها الجسدية: لا تأكل، لا تشرب، تأبى الخروج من سجنها الإفرادي في غرفتها، لا تستجيب لبكاء أمها ولتضرعاتها، ولا تستجيب لنصائح الأطباء. تلتحف ذكرياتها لتبقى إلى جانب ابنها. هناك، في صخب الماضي الأليم، تركض وراء ذكرى لها مع حسن فتستطيب البقاء معه في دوامة اللاوعي.

حبوبٌ صفراء، وأخرى حمراء، وثالثة زرقاء، أدوية كثيرة تُعاقِرها علّها تشفيها من وجع الماضي، عسى تُخرجها من دوامة النار التي التقطتها بأظفارها الحارقة، لكنْ لا فائدة. تعمد إلى استراتجية أخرى ترى فيها الخلاص من عذابها: تلتقط الأدوية المسكِّنة وتبتلعها في جرعة واحدة عسى يكون بها الخلاص من الجحيم... تهرب إلى الموت، لكنه يرفضها. يلفظها القبر كلّما قرّرت دخوله؛ كأنه يقول لها: "لم يحن وقتك بعد".

يخلِّصها أهلها من محاولات انتحارها. يراقبونها على مدار الساعة بعيون خائفة، قلقة، حنونة، عطوفة لا تنام. جميع محاولات الانتحار فشلت، يصرخ لها الموت من بعيد: "لا أريدك". فماذا سيفعل الموت بوردةٍ لا تزال في ريعان ربيعها! ما من مكانٍ للفراشات بين القبور، والورودُ التي تُزرَع على أضرحة الموتى تموت بسرعة لأن الموت مُعْدٍ. يجري الردى في التراب والماء، لكنه لا يستطيع الوصول إلى الأحياء: ضحى حيّة كالربيع، كنسماته اللطيفة الشذيّة، كفراشاته الملوَّنة، كورده الجوري.

يصرخ الموت لها ثانيةً وثالثةً: "لا مكان للأحياء بين القبور".

-14-

تتساءل دوماً متى سينتهي عذابها، وكيف. لكنَّ الإجابة تندثر هباءً في الفضاء لأن السؤال لا يمتّ إلى الواقع، واقع الأمور في شرقنا البائس، بصِلة. وكل ما في حياتها الآن مُبهم، يلفّه ضبابٌ أسود، دخانٌ مُعتم! ما من حقيقة في واقعها، في حياتها، سوى الألم الذي يعتصر كيانها، ولا مُسَكِّن يخفِّف ولا دواء يشفي.

جميع الأطفال الآن سواسية: كلُّهم حسن، تراهم جميعهم حسن.

كلّما رأت طفلاً في الحي، ركضت واحتضنته. تشمّه وتشهق باكيةً، فيبكي الطفل، يصرخ، لأنه لا يعلم من تكون وماذا أصابها ولِمَ فعلت هذا!

كلّما يزورهم طفل برفقة والديه في منزلهم، تركض نحوه، تجلب له الحلوى، وتلعب معه: جميع الأطفال متساوون الآن في نظرها، جميعهم بمنزلة حسن، تحاول أن تعوّض خسارتها بهم، وأن تعوِّض لحسن من خلالهم؛ كأنها تفعل هذا إرضاءً له، ولطلب المغفرة منه على غيابها.

تمرّ الأيام وحسن الغائب الحاضر في جميع الأطفال لا يفارقها. هي تعلم جيداً أنها بدأت مرحلة جديدة من عذابها ودخلت في صراع مرير مع غياب حسن؛ واقع جديد يجب أن تعتاد عليه. ستبكي كلّما رأت طفلاً، لكنْ عليها أن تعتاد البكاء وطعم الألم لأنّ الأدوية لن تنفع ولن تخفّف وطأة فراق ابنها. وجعٌ كهذا لا يشفى بالعقاقير، لا نشفى من أوجاع الحنين والاشتياق، وما من مفر سوى الانصهار مع الألم واعتياد مذاقه. اشتياق الصباح له مذاقٌ مختلف عن اشتياق العصر، واشتياق الليل لا يشبه مذاق أي ألمٍ آخر. لا أحد يعرف مذاق ألم الليل سوى الليل نفسه وصاحب الألم.

الأيام تركض مسرعةً، عامٌ يمرّ وآخر يتبعه، ولا شيء تغيّر أو سيتغير. معلومةٌ تصلها من هنا، وأخرى من جيرانها، ومعلوماتٌ كثيرة تبلغها من سكان الحي وبخاصةٍ الأطفال والصِبية بعمر ابنها: معلومات صحيحة أو مغلوطة، لا تدري. لكنها على استعداد لالتقاط أية إشارة أو خبر عن حسن. لا يهمّها ما إذا كان الخبر صحيحاً أم لا. الأهم أن تعرف شيئاً، أي شيء.

هو تزوّج امرأةً ثانية! الطلاق لم يؤثّر فيه، سريعاً اعتاد عليه وكأن ضحى لم تكن في حياته يوماً. لكنه يجهد لإخفاء حسن عنها! ممنوع أن تراه في الحيّ، وفي المدرسة بخاصة! أرسل لها خبرا يقول إن أتت إلى المدرسة لترى حسن، سيخرِجه منها وسيحرمه من العلم. آثرت مصلحة ابنها، آثرت أن يبقى في المدرسة ولو لم ترَه.

ينهش قلبَها الألم ويعتصر روحها لفكرة أن ابنها يكبر في رعاية امرأةٍ غريبة يعتبرها أمه، بل يظنّها أمه فعلاً. كان في ربيعه الأول عندما أخذوه منها، هو لا يذكرها بالطبع. لا يعلم عنها شيئاً، بل لا يعلم أنها موجودة: المرأة أمامه، زوجة أبيه، هي "أمه"، "هي من حبلت به وأتت به إلى هذه الحياة". يناديها ماما، يشتكي لها، يصرخ حين يحتاج شيئاً. الكذبة تقول إنها أمه، أمّا الحقيقة فتقول: ضحى أمه.

لكنْ في مجتمعنا العربي المريض من السهل أن تصبح الحقيقةُ كذبةً، والكذبةُ الحقيقةَ الواقعية: ضحى الآن، رحمُها كذبة. أمومتُها كذبة. احتياجُ طفلها إليها كذبة. كلمةُ ماما كذبة. وجودُها كذبة.

لكنْ لا وجود للحقيقة في عالم الصغير حسن: لا وجود لأمّه ضحى في عالمه. لا يعرف عنها شيئاً. لا يعلم أن هنالك امرأةً تصارع الغياب وتقاسي عذابات جهنّم تُسمّى "أمه". لا يعلم أن جسداً وروحاً، قلباً وفكراً، يبكيان غيابه بعيداً. ولا يعرف شيئاً عن أمٍّ حملته تسعة أشهر في رحمها، وأرضعته الحنان مع حليب صدرها. فلا الحليب يذكِّره بشيء، ولا الحنان موجود سوى تجاه الكذبة الحقيقية، تجاه الحقيقة الكاذبة، الكائنة أمامه.

ما أصعب أن تتحوّل الكذبة إلى حقيقة فيما نحن على يقين أن الحقيقة مغايرة، وأن الصواب موجود وما من خطأٍ أو باطلٍ يلغي حتمية وجوده! ولكننا مرغمون أن نعيش الكذبة، أن نقنع أنفسنا بها، فتصبح الحقيقة السوداء. في أحيان كثيرة نكذب على أنفسنا كي لا نصدّق الحقيقة، بخاصةٍ إذا

كانت الحقيقة مؤلمة لنا أو لأحدٍ نحبّه، كحقيقة المرض مثلاً: نكذب على أنفسنا، بالأحرى نرفض تصديق أنه موجودٌ فينا أو في من نحبّ. فنغضُّ الطرف عنه، نتجاهله، نرفض تصديق إلّا ما نريد ونشتهي، ولو نحن مقتنعون بداخلنا بعكس هذا. لن تصدِّق ضحى إلّا الخبر الذي تريده سواء كان كذبة أو حقيقة؛ ترفض كل حقيقة لا تكون حسبما ترغب أو تشتهي. لكن الحقيقة العارية، القاسية هي أنها أمٌّ بلا ولدها، وهو ولدٌ بلا أمّه: هي أمٌّ بلا مولود!

-15-

تتسارع وتيرة الأيام، وصخب الحياة يصمّ آذان ضحى. تحاول أن تعتاد روتين حياتها "الجديدة" ودورة الساعة المستجدّة: الأيام، الأشهر والسنين تمرّ. الساعات، الدقائق والثواني تمرّ. وكما قالت فيروز في أغنيتها عن "شادي": "والتلج إجا وراح التلج، عشرين مرة إجا وراح التلج، وأنا صرت أكبَر وشادي بعدو زغيَّر عم بِلعب عالتلج".

نعم، تمرّ السنوات وحسن لا يزال لضحى الطفلَ الصغير الذي سرقوه من حضنها بالتواطؤ مع القدر والشرع، مع القسوة والألم، مع اللا عدالة واللا إنسانية واللا رحمة. هي تكبر، وحسن لا يزال في ذاكرتها المتعبة وفي مقلتيها الحزينتين الطفلَ الرضيع الذي أضاعته فيما ظنّت أنها تخوض حرباً لأجله، لأجل راحته ومستقبله. حسن لا يزال الطفل الصغير الذي يرفض أن يكبر في داخلها؛ لا تملك صورة له غير الصورة التي احتفظت بها يوم كان طفلاً.

عاد الصيف و لم يجلب أشعةَ شمسٍ، ولو حارقة، تخبر عن حسن. وأقبل الخريف تِلوَ الخريف، تساقط ورق الشجر عشرات المرّات، وما من ورقة تحمل اسم حسن. وحتى الشتاء، لم يرسل قطرة ماءٍ وحيدة تحمل طيف حسن. ولا حبّة برَد يتيمة أتت من حيث هو. غيّرت الفصول حِللها، ومثلها تغيّرت ضحى: لم تعد الفتاة البريئة التي كانتها. لم تعدْ فراشة الربيع. أصبحت وردة بلا لونٍ وعطر. استوطن الجليد قلبها ولم تعد الدماء تجري في عروقها، كأنها تخثّرت مثل الزمن الذي توقّف يوم سُلِخ ابنها عنها. أصبحت باردة: عروقها صقيعية، نفسيتها شبيهة بجبلٍ تراكم فوقه الثلج بمرور الفصول ولم يذب؛ باتت كطبقات جليدٍ تختزن حكايا أيامها وفصولها وسِنيها، تُخبِر عن عذابها وألمها: عن طفلٍ سرقته منها الحياة.

أصبحت هشّة وقاسية، ضعيفة وقوية، معاً من الداخل ومن الخارج؛ كالجوز، قشرةٌ خارجية ليّنة خضراء تحمي قشرةً قاسية صلبة تحتها، وقشرةٌ قاسية تحمي ثمرةً هشّة داخلها تُكسَر سريعاً. ترفض التقرّب إلى، أو التعرّف على رجلٍ آخر؛ لن يدخل حياتها أحدٌ بعد الآن: جميعهم أصبحوا طليقَها، كلُّهم متساوون، سيعذِّبونها، سيضربونها، سيغتصبونها، وسيسرقون منها ربيع شبابها وريحان جسدها، وإن حبلت سيسرقون أولادها...

كلُّهم مجرمون بحقّ جسدها وروحها، بحقّ إنسانيتها، بحقّ شبابها وجمالها. لم تعدْ ترى شيئاً مميّزا فيهم: الخوف من الرجال يتآكلها، متحوّلاً إلى عقدة نفسية. أصبحت تخاف خشونة أيديهم، ولم تعد تثق حتى بوالدها! أليس رجلاً هو أيضاً؟!

تربط جميع الأحداث، بعضَها ببعض: ظلمَها رجل، ووالدها رفض بدايةً طلاقها، إذاً هو متواطئ مع الأول! الشيخ، الذي أصدر حكماً تعسّفياً ظالماً بحقّها، هو رجل، والمحامي الذي لم يستطع أن يساعدها، رجلٌ أيضاً، إذاً هم متآمرٌ مع الأول. جميعهم متواطئون ضدّها بطريقةٍ أو بأخرى، وقفوا في الصفّ المقابل، في الجهة الأخرى، وظلموها. فأنّى لها أن تثق بالرجال بعد الآن، كيف تتجرّأ وتدخل في علاقة مع أحدهم.

باتت ترفض الحب أيضاً... لم تعدْ تثق بمشاعرها...نسيت كيف تحب، وكيف هو طعم الحب، نسيت ما الحب أساساً... نسيت كيف ينبض القلب حين يحب ويعشق... الخلل ليس فيها فقط، المجتمع أسهم في تنمية شكوكها بالرجال وفي ترسُّخ خوفها، بل رعبها منهم: أليس هذا المجتمع هو نفسه الذي ينظر إليها على أنها مطلَّقة؟! أليس هو من ظلمها وأخذ منها ابنها؟! كيف لا، وكل من تعرَّف إليها وعرف قصتها أراد استغلالها: منهم من لم يتقبّل فكرة التقرُّب منها، فقط لأنها مطلَّقة. مُراده الجنس، الحصول على جسدها فقط، ظنّاً منه أنها مستعدّة لأن تهب جسدها لكل "عابر سرير"! منهم من حاول إقناعها بعقد زواج متعة كي تكون ممارسة الجنس "حلالاً"، وكي لا يُغضِب رجال الدين ولكي لا يخرج على الشرع! منهم من ابتعد عنها حين علم بقصّتها مخافة دخوله علاقة مع فتاة "لديها ماضٍ" كما يُقال! ومنهم من كان صريحاً معها رغم فجاجته، فاعترف أنه لا يريد إقامة علاقة بشابّة مسَّها رجلٌ آخر ولو كان زوجها!

عِقَد تتحكّم بمجتمعٍ بأسره، فهل نعتب إن تحكّمت بها عقدة نفسية جرّاء ما خَبِرته ومرّت به، وجرّاء الظلم الذي لحق بها على يد مجتمع ذكوري بامتياز؟! من ظلموها كانوا رجالاً دافعوا عن

معتقداتهم البالية ومكانتهم الزائفة وذكوريتهم المخصيّة، ولم يشفع ولم يترأف بها أحد. الكل خانها، والكل قتلها، ثم "دفنوها" حيّة! صمّوا آذانهم عن صراخها وأوجاعها، أداروا ظهورهم ومشوا تاركين أنثى "مدفونة" وأمومة موءودة! وأدوها كما كان يفعل أسلافهم في عصر الجاهلية. لم نتغيّر كثيراً! مرّت العصور، ولا يزال هناك جاهلي ينام داخلنا ولا ندري متى يستيقظ.

لم ترغب ضحى التقرُّب من أحد بعد الذي حلَّ بها: وجدت في الانطواء الحلَّ الأفضل؛ لم تعد تثق بأحد. ما من رجلٍ وجد الطريق إلى قلبها، وما من أحدٍ قدر على تغيير نظرتها في الحياة وتغيير أحاسيسها ومشاعرها التي طوتها ووضعتها في علبة الانتظار.

-16-

حدث أن تطوّعت أخت ضحى مع الصليب الأحمر اللبناني. أخبرتها كم هو جميلٌ العمل التطوعي الإنساني، وكم ستكتشف مزايا مخبّأة في شخصيتها وإمكانات كامنة في حياتها، وكيف يتغيّر الإنسان حين يعطي بمحبة وإنسانية. أقنعتها أن تنضمّ إلى الصليب الأحمر.

وبالفعل انضمّت ضحى إلى الصليب الأحمر اللبناني، ملتحقةً بصفوف شبّانٍ وشابات كرَّسوا حياتهم لعمل الخير والمساعدة والعطاء بلا مقابل. شيءٌ ما داخلها أراد التغيير، صوتٌ داخلي قال لها: اخرجي من قوقعتك المظلمة ومن سجنك المعتم، حطّمي جدار الماضي الذي يسجنك ويكبّلك بجنازير ذكرياتك.

إرادتها في التغيير دفعتها إلى ذلك، والسنوات التي أغرقتها في لجج الألم والعذاب علَّمتها أن لا جدوى من الدوران في دوامة الماضي إلى ما شاء الله، وأن الانتظار سيجلب لها مزيداً من الخيبات واليأس والدمار الذاتي. قرّرت كسر جليد السنين علّها تكتشف حياةً أخرى راقدة داخلها، أفقاً آخر نائماً بين جناحيّ القدر، فرصة ثانية، درباً جديداً يوصلها إلى السعادة والفرح.

وها ضحى تكتشف ملكاتٍ أخرى في شخصيتها، وتختبر بنفسها كيف أن العطاء بمحبة، ومن دون انتظار مقابل، يمنح الإنسان سموّاً وارتقاءً نحو الكمال الذي هو فيه منذ البدء. لكنها اكتشفت أيضاً أن الإنسان عجينة ليّنة طريّة، وهو يحتاج إلى بذل الجهد والعمل الكثيف ليطوّع شخصيته ويصقلها بالمحبة وفِعل الخير فيسمو بها إلى أعلى مراتب الكمال وإلى المعنى الحقيقي للإنسانية السَّمِحة المعطاءة. وكم رأت كلمة "شكراً" في عيونٍ باسمة أنقذت أصحابها من حادثٍ أو مرض! رصيدها محبة المعوزين وبسمة الفرح على وجوههم، ما زاد عزمها على العطاء الذي رأت فيه ممارسةً حقيقية، بالعمل لا بالقول فقط، لإنسانيتها الجميلة.

كانت ترى ابنها في كل طفل تساعده. هي تفتقد حسن كثيراً، لكنها كانت تجده في وجوه جميع الأطفال، في بسمتهم، فتغدق عليهم المساعدة معجونةً بالحب وحنان الأم. ومشاعرها الجميلة هذه كانت تزيد عملها الإنساني جمالاً ونبلاً. وكم كانت بحاجةٍ ماسّة إلى هذا العمل التطوعي الذي فجَّر في داخلها الأمومة من جديد؛ أمومة دخلت في سباتٍ شتوي طويل، ونامت معها مشاعرها وأحاسيسها وشخصيتها وإنسانيتها. وكم كانت تحتاج إلى رؤية الفرح والسعادة في عيون من تساعدهم لتبعث فيها فرحاً فقدته منذ أمدٍ بعيد.

عادت إليها أحاسيسها ومشاعرها؛ كأنها وُلدت ثانيةً. الإحساس العميق بحزن الناس، مشاركتهم أحزانهم وآلامهم، وكذلك الإحساس بفرح مساعدتهم، الفرح بصنع الفارق في حياة الناس، كل هذا دفعها للعطاء أكثر، ومن دون مقابل، وعَضَدها وشدّ عزيمتها لإنقاذ حياة ناسٍ كثيرين. وكم آلمتها مشاهد الدماء والأشلاء، لكنها رأت أن تضميد الجراح يغيّر الإنسان عميقاً، يعطي معنى لحياته. وهل من ضحكةٍ أجمل من تلك الضحكة التي يرسمها فرح العطاء على ثغرٍ تُطبقه الحسرة، ومن تلك الضحكة التي نملأ بها الصدور المكلومة! لا يرى هذا، ولا يشعر به، غير من يعطي بمحبة غير مشروطة، ومن دون دافع غير الدافع الإنساني: العطاء اللامشروط، مدُّ يد العون للمحتاجين، يدفع الإنسانية نحو الكمال لأنه ممزوجٌ بالحب؛ حب فِعل الخير، حب الناس، حب الآخر بغضِّ النظر عن دينه وشكله ولونه وجنسه ومذهبه ومعتقده، حب للوجود، حب للطبيعة، للبشرية، حب غير مقرون بدافع أو مقابل.

هذا النوع من العطاء يشعرك بالرضا عن الذات ويحفِّزك للمزيد ويشجعّك للقفز فوق الخطوط الحمراء ولتخطّي الصعاب والشدائد ومواجهة المجهول. تُفرِحك رؤية السعادة على وجه الآخرين. أن تعطي حين لا تملك شيئاً فهذا أسمى ألوان العطاء وأجملها، وضحى لم تكن تملك شيئاً كأرملة أعطت قطعة النقود الأخيرة في جيبها لفقيرٍ مثلها؛ فهي أعطت من لحمها، من قلبها، من جسدها وروحها، من هنائها وصحتها يومَ كانت بحاجة ماسّة لأن تُعطَ عاطفةً وحناناً ورعايةً واهتماماً.

لا تملك عاطفة وحبّاً، وأعطت من عاطفتها وحبّها. لا تملك الأحاسيس وأعطت من أحاسيسها كاملةً. لا تملك العزم والقوة والإرادة، وأعطت بما تبقّى فيها من عزيمة. هذا ما ساعدها

على كسر الجليد عنها وولادتها ثانيةً بشخصيةٍ جديدة؛ ضحى جديدة الآن، ضحى قوية تخبّئ ضعفها ولا تُظهِره. من لدن الألم تعطي الفرح، ومن عُري الحاجة تمدّ يد العطاء والمساعدة.

احتفظت ضحى بحسن في قلبها وأكملت حياتها. طوت الذكريات في مجلّدٍ وخبّأته تحت التراب كي لا يراه أحد وكي لا تُعيد نبشه ثانيةً.

كطائر الفينيق نفضت عن جناحَيها الرماد وطارت بعد أن احترقت، وُلِدت امرأة جديدة من رحم الأوجاع. تعلَّمت، ولم تنسَ. احتفظت بولدها في صدرها ومضت. مشت إلى الأمام، سارت نحو الأيام القادمة المجهولة، غير خائفة أو آبهة بأحد. فهي أقوى الآن، تعلّمت أن الضوء يحرق جناحَيها فطارت نحو النور بانتباهٍ شديد؛ طارت نحو النور الذي لا يحرق، نحو النور الذي سيُضيء عتمة الدرب القادم.

-17-

قال لها مسؤولٌ في الصليب الأحمر أن هناك مقابلة إذاعية عن حياة المتطوّع وتحدياته الصعاب، وأنه سيختارها هي وشابّين آخرَين ليكونوا في المقابلة. قبِلت مرحِّبةً بالفكرة، فهي فرصة لتُخبِر الناس عن تجربتها التي غيّرت حياتها إلى الأبد.

- مقدِّم البرنامج: هل عملك التطوّعي في الصليب الأحمر يتعارض أحياناً مع ارتباطاتك الشخصية، أي هل من تنازلاتٍ تقدِّيمينها في حياتك الشخصية لصالح عملك التطوعي؛ مثلا علاقتك، الوقت الذي تمضينه مع عائلتك أو مع حبيب؟

- ضحى: طبعاً، هنالك تنازلاتٌ على المرء أن يقدِّمها لكنْ ليس لناحية العمل التطوّعي فقط. فكثيراً ما يمرّ الإنسان بتجارب في الحياة تُجبِره على تقديم تضحيات أو تنازلات لأجل أشياء معيّنة أو أناسٍ آخرين. عائلتي تشجعِّني بخاصّة أن العمل التطوّعي مبنيٌّ أساساً على العطاء وحب الغير وتقديم المساعدة للآخرين. أمّا الحبيب فليس لديه مانع، وهو إلى جانبي الآن. هو متطوّع مثلي.

- مقدم البرنامج: آه، حسن هو الشخص الذي تحبّين إذاً؟

- ضحى: نعم، والعمل التطوعي جمعنا نحن الاثنين. وحب العطاء وحب المساعدة تاجان كلَّلا علاقتنا بالحب والنجاح.

دخلت ضحى في علاقة حب جديدة، في مغامرة عاطفية، في عملها التطوّعي كما قالت. والمصادفة الجميلة أن اسمه "حسن"، على اسم ولدها. هل اختارت هي المصادفة، أم المصادفة اختارتها: هل دفعها اسمُه لحبّه، "مكوِّنةً" المصادفة بنفسها؟! أم أن المصادفة كانت في اسمه

ووجوده صدفةً في حياتها؟! لا يهمّ. العوامل كلها ساعدت في وجودهما معاً، في لقائهما. والأهم هو الحب الذي جمعهما.

امتطت ضحى صهوة الأيام فوجدت فارسها الذي كان ينتظرها على الدرب. مدّت يدها إليه، التقطها وصعد خلفها على الحصان. غمرها من الخلف، ومعا التقطا الفرح يداً بيد.

مرّت سنة على مقابلتها الإذاعية، أي سنة إضافية على علاقتها بحسن. وضعت خاتم الخطوبة للمرة الثانية في إصبعها، لكنها بصمت، في سرّ قلبها، كانت تقول: "ستكون المرّة الأخيرة"؛ أمنيتها الدفينة أن ينام هذا الخاتم فعلاً في إصبعها إلى الأبد.

لكنَّ الحزن الداخلي العميق كان رفيقها الدائم: حزنها على غياب ولدها وعدم قدرتها على رؤيته! تسع سنوات بكأيامها وساعاتها، تسع سنوات بفصولها المتعاقبة، ولم ترَ "حسنها"! حاولت مِراراً أن تراه، لكنَّ خوفها من ردّة فعل طليقها أثبط عزيمتها. لكنها لا تزال تتلقّف أخباره من هنا وهناك، من هذا وذاك. وصورتُه صغيراً لا تزال في حوزتها، تضعها إلى قلبها، تضمّها باكيةً كلّما اشتاقت إليه. صورةٌ عمرُها تسع سنوات، بلّلها الدمع تسعاً وتسعين ألف مرّة على مدى سنواتٍ تسع.

في إحدى المرّات وضعت الصورة على صفحتها على الفايسبوك في عيد الأم. عايدته هي بكلمات جميلة تحمل حروفها وجعاً وألماً دفينين يشعران القارئ بأن هذه المرأة تحمل في طيّات كلماتها قصة مؤلمة، بخاصّةٍ أنها هي من تعايد ابنها في عيد الأم؛ توجّه إليه رسالة محمَّلة بعبق الاشتياق والحب، ما يدعو كل من يُقلِّب صفحتها على موقع التواصل الإجتماعي إلى ملاحظة الوجع والشوق الكبيرين في قلب تلك المرأة، فيتساءل عن قصتها، ماذا حدث معها، أية أسرارٍ أليمة تخبّئها في سرّ قلبها.

حصل هذا مع مقدِّم البرنامج الإذاعي الذي استقبلها منذ سنة تقريباً في حلقة عن الصليب الأحمر. تردّد قليلاً قبل التواصل معها. راح يراقبها من بعيد، من خلف شاشة الكمبيوتر والتلفون المحمول؛ يترقَّب كلماتها كل يوم، يرصد تحرّكاتها، يحدِّق إلى صورها، يشعر بوجعها في كل كلمة تكتبها، يمعن في شكل الألم مع كل صورة تضعها على الفايسبوك. لاحظ وجود صورة طفلٍ تضعها دوماً؛ في كل مناسبة أو عيد يوم برمزيةٍ ما، تضع الصورة نفسها وتكتب فوقها كلمات خاصة بالعيد أو المناسبة أو اليوم، متوجّهةً بالكلام إليه. لم يفهم بدايةً ما حصل لهذه المرأة، لم يفقه المعاني التي

تضمِّنها كتاباتها أو تعليقاتها على صفحتها. لم يَفِتْه أن تكون الصورة قد تكون لابنها رغم أنه لا يعلم أنها متزوجة. فضوله المهني والإنساني دفعه للتواصل معها وسؤالها عن هوية الطفل في الصورة.

- مرحباً، كيف حالك؟

- أهلاً، بخير شكراً، وأنت كيف حالك؟

- بخير. عذراً لفضولي ولإزعاجك، هل لي أن أسأل عن هوية الطفل في الصورة التي تضعينها دوماً وتكتبين له؟

- لا، ما من إزعاج: انه ابني.

- ابنك؟ هل أنت متزوّجة؟

- كنت... كنت متزوّجة، والآن مطلَّقة.

- وحسن؟ خطيبك، طيّب. لكن أين ابنُك الآن؟! ولِمَ تكتبين دوماً له متحسِّرةً على غيابه.

- حسن خطيبي لا يزال موجوداً، لكنَّ علاقتنا متوتّرة الآن. وابني اسمُه حسن أيضاً، لكنني لم أره منذ عشر سنوات.

- أف، لماذا؟ ما القصة؟

- انها قصة طويلة، أرويها لك فيما بعد...

- سؤال أخير، هل تسمحين؟

- طبعاً، تفضَّل.

- هل تستطعين إخباري قصّتك؟

- نعم، لكن لماذ؟!

- أخبرك لاحقاً، هلّا التقينا قريباً جداً؟

- ساعة تشاء.

- شكراً، إلى اللقاء.

بعد أسبوعين تقريباً، اتفقا على موعد. زارها في منزلها الكائن في حيٍّ عربي من هذه البلدان العربية.

- أعتذر بشدّة على إزعاجي لك، لكنَّ اهتمامي بقصّتك وفضولي دفعاني إلى ذلك. لم أعلم قطّ أنك كنت متزوّجة وأنك تحملين قصّة وراء هذا الوجه الجميل الضاحك دوماً. فهل نبدأ؟

- من أين تريدني أن أبدأ، من حسن خطيبي أم حسن ابني؟

- نعم ذكّرتني الآن، هل لا تزالين مرتبطة بحسن الذي حضر معك في المقابلة؟

- نعم، لكنّ علاقتنا تزعزعت في الفترة الأخيرة وقرّرنا الابتعاد قليلاً وعدم رؤية بعضنا حتى ندرس وضعنا جيداً.

- إذاً أخبريني، ابدأي من حيث ترغبين.

بين دمعة وأخرى، وغصّة واختها، وشهقة قلب وحشرجة روح ونَفَس متقطِّع، روت ضحى قصّتها بالتفصيل. رأى وجعها في كل كلمة نطقتها، وهي تتنفّس ألمها مع كل انقطاع ووقفة. شعر بما تعانيه في كل نظرة من نظراتها الشريدة.

روت قصّتها متحسِّرةً على حالها، بحرقةٍ على ابنها، كأنها انتظرت هذه الفرصة طويلاً لتُفرج عن مكنونات قلبها. امتلأ المكان بضباب كثيف، بضباب الألم الذي خيّم على أرجاء الغرفة، فقرّر أن يغيّر أسئلته علّه يلطِّف من ثقل الهواء في المنزل.

- وحسن خطيبك؟

- أحببته بكل جوارحي، هو الوحيد الذي أعاد الحياة إلى قلبي وأعادني إلى الحياة. هو من جعل قلبي يخفق ثانيةً. ظننتُ أنه سيعوّض لي عن كل ما مررتُ به. رأيتُ فيه ابني وحبيبي وزوجي وكل أيامي القادمة إلى أن...

- إلى أن ماذا؟

- إلى أن صفعني مرّةً... بغير قصد ولشدّة عصبيته، قال.

- توقَّفي، لا تُكملي...

- لماذا؟

- أظن أنني أعلم الباقي...

- وهل صدمتْك قصّتي؟

- ظننتُ أنها قصة، لكن اتّضح لي أن المأساة لا يشعر بها إلّا من عاشها أو يعيشها. وأتساءل كيف يصل إنسانٌ إلى ظلمٍ وحقدٍ وبطشٍ كهذا!

- أنت قلت، لا يشعر بالمأساة سوى من يعيشها. لم تخبرني لغاية الآن لماذا تريد معرفة قصّتي أو مأساتي كما أسميتَها.

- أنت تعلمين أنني كاتب وأنني...

- تريد كتابة قصّتي في رواية؟

- قبل سماع جوابك بنعم أو لا، تأكّدي في الحالتين أنني سأحترم قرارك. لكن نقطة وحيدة أثارت اهتمامي، بالأحرى يدور في رأسي سؤالٌ وحيد منذ بدأت تخبريني قصّتك.

- ما هو؟

- لماذا لم تحرّكي ساكناً طوال هذه المدّة؟! لماذا لم تطالبي بحقّك في رؤية ابنك؟! أخبرتني أن مرّت عشرة سنوات على عدم رؤيتك ابنك، فلِمَ لم تلجئي إلى القضاء أو حتى إلى برامج تلفزيونية قد تساعدك لاسترجاعه، لاسترجاع جزءٍ منك سرقوه لسنوات وسنوات؟!

- لأننا يابنيّ نخاف...

تدخل والدتها الغرفة قائلةً، مقاطعةً الحديث.

- كيف حالك يا حجّة، أعرِّفك بنفسي لو سمحت؟

- أهلاً يابنيّ، لقد أخبرتني ابنتي عنك. لكن دعني أجيب عن سؤالك: نحن يا بنيّ نخاف الله بدايةً. ونخاف العبد ثانياً، ليس كمخافة الله بالطبع؛ بعض العِباد لا يعرفون الله، لذا نخاف إغضابهم ونخاف ردّة فعلهم ونخاف من لسان هذا المجتمع الظالم. معك حق، لقد سكتت ابنتي، وسكتنا معها، طوال هذه المدّة نتيجة الخوف. لربما أخبرتْك ضحى، لا أعلم: كنّا بدايةً ضد الطلاق للسبب نفسه، وهو الخوف من كلام الناس ومن ألسنة السوء، فكيف لو ظهرت ابنتنا في برنامج تلفزيوني وتكلّمت؟! ستقوم القيامة، وستكون قصتها على كل لسان، وستُفتح الملفات ثانيةً وثالثةً، وسندخل في محاكم، مع قضاة ومحامين، ونحن لا نحتمل ذلك يا بنيّ...

- لا أدري، هذا رأيكم. لكنني أخالفكم الرأي. هي صاحبة حقّ، وصاحب الحق سلطان. فكيف إذ كان هذا الحق هو ابنها، فلذة كبدها؟!

- معك حق، هو ابني وفلذة كبدي. هل تعلم مقدار الألم الذي أعانيه في كل يوم؟! هل تعلم كيف أُغمض عينيَّ في كل مساء، وكيف أفتحهما صباحا؟! هل تعلم ماذا يعني أن يكون لك ولدٌ لا تعلم أين هو، وهو لا يعلم بوجودك؟!

- كيف هذا، ألا يعلم أنك أمه؟!

- كلّا، هو لا يعلم. وهذا كفيلٌ بأن يقتلني كل يوم آلاف المرّات... وصلتني معلومة في أحد الأيام أن فتاةً من جيرانهم كانت تلعب معه، قالت له من في المنزل ليست أمك، أمُّك اسمُها "ضحى". وعلمتُ أن والده، أي طليقي، تشاجر مع أهل الفتاة. أرأيتَ لماذا نخاف مواجهته، أرأيت كم هو...

- لكن لا أحد قادراً على إخفاء الحقيقة، على الاختباء من الشمس كثيراً. وعاجلاً أم آجلا سيعرف ابنك الحقيقة، وسيطلب رؤيتك، وسيعاتبك لا محالة؛ سيعاتبك على عدم مطالبتك به، سيلومكم جميعاً على جعله يعيش كذبةً طوال سنوات وسنوات. ولا أحد يعلم ماذا سيخبره والده حينها، فمن فعل ألحقَ بك كل هذا العذاب لسهلٌ عليه أن يقنع ابنك بأية كذبة. حينها ماذا ستفعلين، ماذا ستقولين له: كنت خائفة؟! بأي وجه ستقابلينه حين يعلم الحقيقة؟! أتعلمين أنكما، أنتِ ووالده،

تُسهمان بتدمير حياته ومستقبله؟ هل تستطعين معرفة ردّة فعله؟ ما حصل، وما يحصل، وما سيحصل هو مجزرة بحقّ الإنسان والإنسانية، بحقّ ولدكما.

- والآن، ماذا ستفعل يا بنيّ؟ تقاطعه أمها.

- إذا كنتما خائفتين لهذه الدرجة، فلن تسمحا لي بنشر رواية ما مررتِ به يا ضحى، بإخبار قصّتك للناس.

- لا، سأسمح لك. وستكون هذه الرواية بداية كل شيء: بداية جرأتي، بداية الحقيقة المخفيّة تحت رماد عشرة سنوات، بداية حياة جديدة. لي ولدٌ، وسأستعيده، ومعه سأستعيد حقّي الضائع، وسأعيد حق كل امرأة ظلمها هذا المجتمع الذكوري وقسا عليها وجعلها ضحية الهمجية والرجعية والذكورية. أكتبْ قصّتي وانشرْها، ولتكن البداية، بداية النضال والثورة...

- وماذا تريدين أن تقولي في هذه الرواية؟

- كل شيء، ما قيل وما لم يُقَلْ: اكتبْ واخبِر الناس كل شيء، اخبرهم أنني: "أمٌ مع وقف التنفيذ، وحتى إشعار آخر - أمٌ بلا مولود".

بيروت، ١٥ أبريل ٢٠١٨

الكاتب:

وضعتُ قلمي بعد عامين من كتابة هذه الرواية، وفي كل مرّة خلال هذين العامين كنتُ أضع قلمي مستسلماً خائفاً من أن أكمل روايتي هذه: خوفي أن يفهم القرّاء أو الناس خطأً أن غايتي من هذه الرواية سوءٌ لا سمح الله، خوفي أن يُفهم خطأً أنني استغليتُ قصّة "ضحى" لأضيف روايةً إلى بواكير أعمالي. لكنني كنت أستمدّ القوة دوماً من "ضحى"، ومن الأحداث الأليمة التي عاشتها. وكنتُ أستمدّ القوة من صلابتها، من تحمّلها وتصبّرها، تجاه ما عانته بغياب ابنها طوال هذه المدة.

لن ينفع بأن أكتب بنهاية هذه الرواية أن جميع هذه الأحداث والشخصيات من وحي خيال الكاتب كما نرى في الأفلام والبرامج والتلفزيونية. ففي وطننا العربي مئاتٌ، بل آلاف النساء، يُشبِهن

"ضحى". في هذا الوطن العربي آلاف "ضحى" مختبئات تحت ظلم هذا المجتمع، لا يحقّ لهن البوح بما يُعانين ولا الكلام بأعلى أصواتهن، لأن مجتمعنا وللأسف ذكوري بامتياز.

لا أحد يعلم من هي "ضحى"، ولا أين تسكن. ولا أحد يعلم إن كانت سترى ابنها وتخبره الحقيقة أم لا.

هي تسكن في الشام، لا، في العراق. عذراً، في لبنان. أظن أنني مخطىء، هي تسكن في السودان. في مصر. من المرجَّح في الإمارات، أو في السعودية. لست أدري...

في جميع هذه الأوطان العربية هناك "ضحى" تعاني من قسوة مجتمعنا وظلمه. ولكن في جميع هذه الأوطان رجالٌ أيضا مستعدّون لأن يقفوا الى جانبها، لأن يساندوها في استرجاع حقّها، لإيمانهم بأن المرأة ليست نصف المجتمع، بل المجتمع كلّه.

الإهداء

الى كل نساء العالم وردة، و رواية، مع حبي....

ابراهيم عيسى